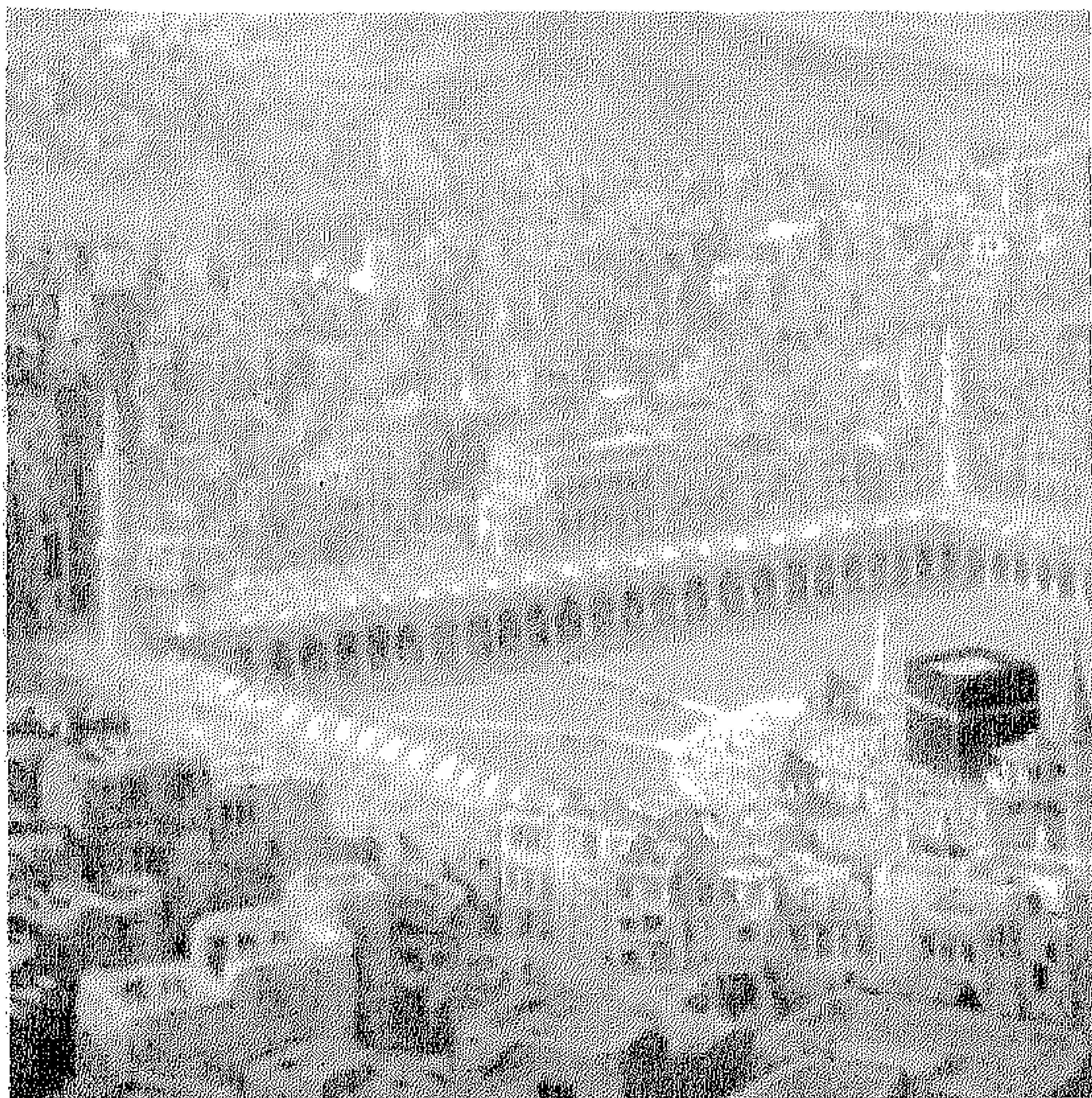
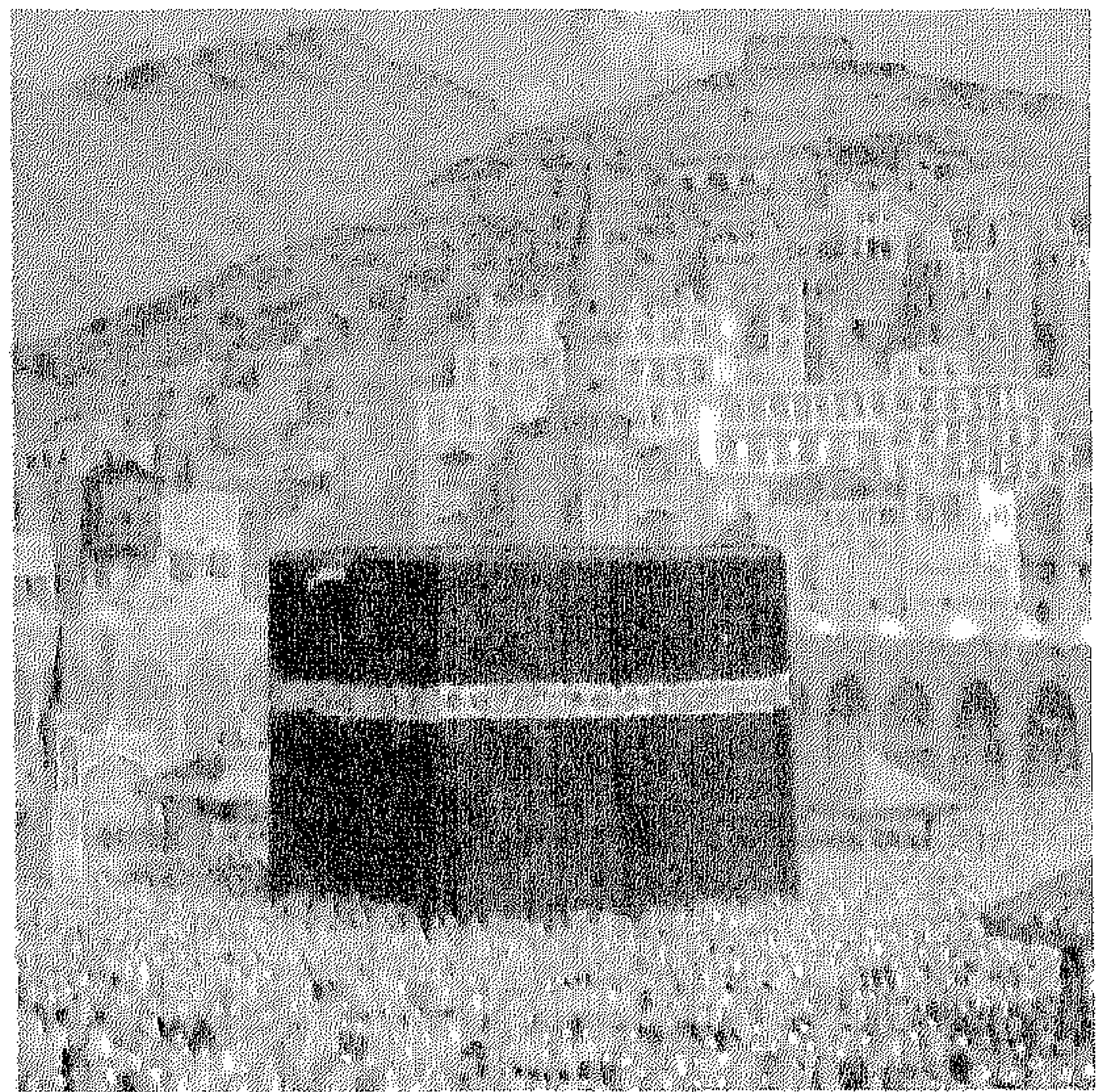
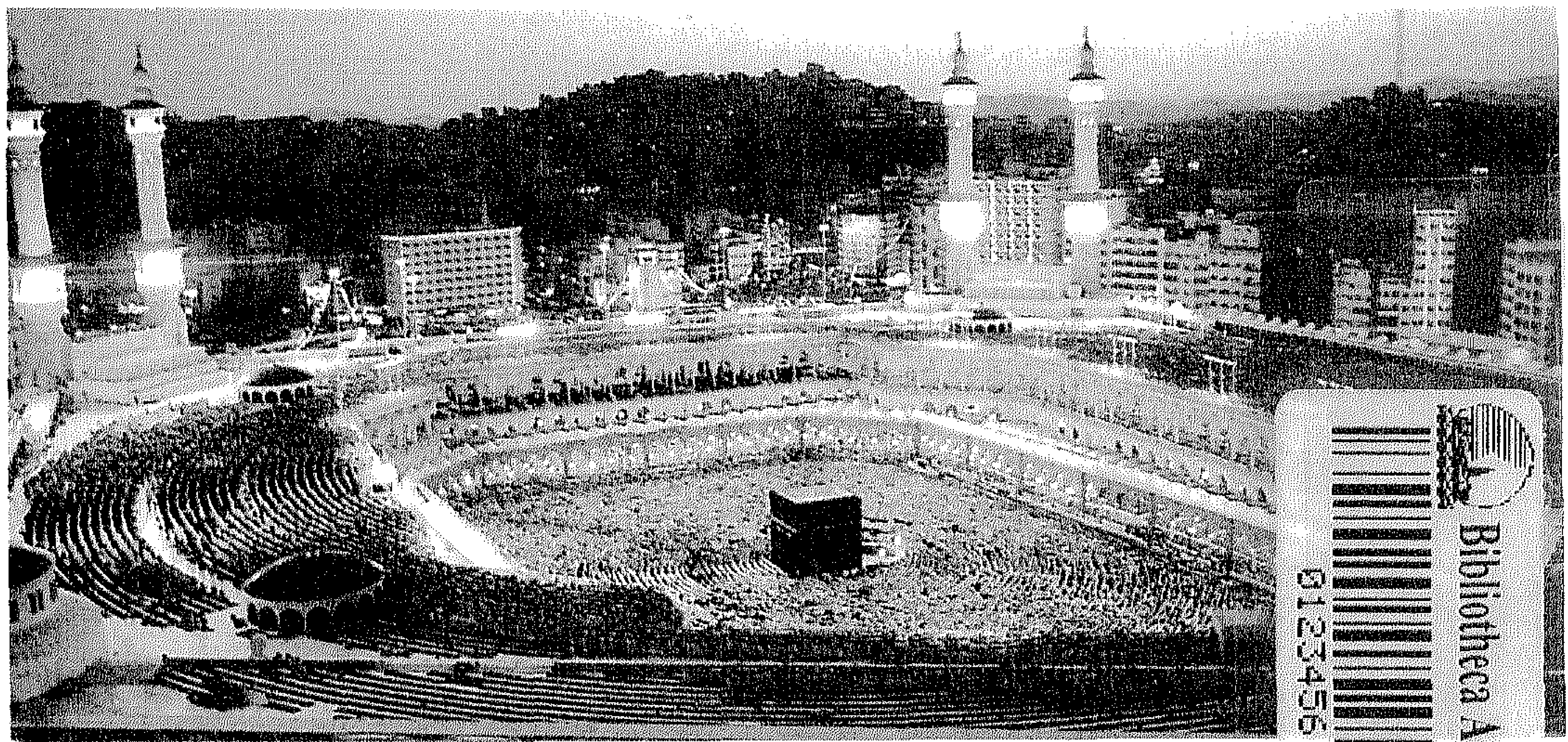
د. حسّان حلاّق

مكّة المكرّمة

من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة









دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ١١٠٧٤٩

مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ

مِنْ خِلال رِحْلتي ابن جُبَير وابن بَطُوطَة

مكة المكرمة

من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

د. حسان حلاق



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ١١٠٧٤٩

الناشر



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

الإدارة: بيروت ـ شارع مدحت باشا ـ بناية كريدية
تلفون: 818704 ـ 818705
برقياً: دا نهضة ـ ص. ب: 749 ـ 11
تلفاكس: 232 ـ 4781 ـ 212 ـ 001

المكتبة: شارع البستاني ـ بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون: 316202 ـ 818703

المستودع: بئر حسن، خلف تلفزيون المشرق
بناية كريدية ـ تلفون: 833180

الإهداء

إلى أبناء مكة المكرمة والأراضي المقدسة
إلى أبناء المسلمين والعرب أينما وجدوا
أهدي هذه الدراسة عن المدينة المقدسة
مكة المكرمة أم القرى

حسان حلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مكة المكرمة من المدن المقدسة عند المسلمين، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في العديد من السور والآيات الكريمة. أُطلق عليها اسم بكّة واسم أم القرى، وهي عاصمة الحجاز وإحدى أهم المدن في المملكة العربية السعودية، وهي مسقط رأس النبي محمد ﷺ. ومن معالمها الكعبة الشريفة التي تتوسط المسجد الحرام ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام في المسجد الحرام. ومن المعالم الأخرى جبل عرفة أو عرفات الذي يزدحم بالحجاج في موسم الحج. ومن الملامح الطبيعية الدينية في مكة الوادي المقدس الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، بالإضافة إلى غار حراء وغار ثور في جبل مكة.

ونظراً لأهمية مكة المكرمة فقد زارها وكتب عنها الكثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين الذين دونوا مشاهداتهم من هؤلاء: ابن الفقيه في كتابه «مختصر كتاب البلدان» والازرقي في كتابه «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» وابن جبير في كتابه «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وابن بطوطة في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار»، وابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» وقد أشار الكثير من الرحالة إلى مكة المكرمة وجزيرة العرب منهم: ابن دقماق، والإدريسي، والاصطخري، والدمشقي، والزمخشري، واليعقوبي، والمسعودي، والمقدسي، وياقوت الحموي، والحميري. بالإضافة إلى بعض الجغرافيين

المعاصرين مثل الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى مصر والشام والحجاز»[1].

ونظراً لأهمية رحلتي ابن جبير وابن بطوطة فقد اخترتهما للإطلاع على مشاهداتهما وانطباعاتهما في مكة المكرمة والأراضي المقدسة. وقد حرصت أن تكون منهج الدراسة متضمنة ما يلي:

١ ـ مقدمة.

٢ ـ دراسة عن مكة المكرمة تتضمن تاريخها وأوضاعها الدينية والاقتصادية والاجتماعية، والآيات القرآنية التي أشارت إليها.

٣ ـ مقدمة وتمهيد ومختصر لرحلة ابن جبير كتوطئة لنصوص الرحلة.

٤ ـ مقدمة وتمهيد ومختصر لرحلة ابن بطوطة كتوطئة لنصوص الرحلة.

٥ ـ فهرس الموضوعات.

هذا وأتمنى أن أكون قد وفقت في تسليط الأضواء على أهم مدينة مقدسة من مدن المسلمين، من خلال مشاهدات وانطباعات الرحالة المعاصرين المسلمين. كما أتمنى أن تكون هذه الدراسة مقدمة لدراسات أخرى تعكس مدى اهتمامي بالعالمين العربي والإسلامي.

بيروت المحروسة
في ٢٩ ذي الحجة ١٤١٥ هـ
الموافق ٢٩ أيار ١٩٩٥ م

---

(١) ورد في كتاب ابن النديم «الفهرست» عدة كتب عن مكة المكرمة منها: كتاب مكة والحرم، وكتاب قصة الكعبة لأبي عبيدة، وكتاب أخبار مكة للواقدي، وكتاب مكة وكتاب بناء الكعبة للمدائني، وكتاب مكة وكتاب أمراء مكة لابن شبه، وكتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها للأزرقي، وكتاب فضائل مكة على سائر البقاع لأبي زيد البلخي، وكتاب مكة وأخبارها في الجاهلية والإسلام للفاكهي، وكتاب حفر زمزم لأبي إسحاق العطار، وكتاب جبال وأودية مكة وأسمائها لأبي الأشعث بن مخراق.

مكة المكرمة

مكة المكرمة، وهي بلد مقدس عند المسلمين، أطلق عليها اسم بكّة واسم أم القرى. وهي عاصمة الحجاز وإحدى أهم المدن في المملكة العربية السعودية. وهي مسقط رأس النبي محمد ﷺ. عدد سكانها نحو (٥٠٠) ألف نسمة. وفي موسم الحج يتفاوت عدد الحجاج بين سنة وأخرى حيث بلغ مع عدد السكان عام ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ما يقارب أربعة ملايين نسمة. عريقة في القدم، ولتوسطها جزيرة العرب كانت مركزاً تجارياً وثقافياً هاماً. تقع على بعد ٨٠ كلم شرقي البحر الأحمر.

أما في ما يختص بمناخ مكة فإن الأمطار فيها ما تزال شحيحة، ولا تسقط إلا على فترات متباعدة، ولذلك فإن فترات الجفاف التام كثيراً ما تمتد إلى أربع سنوات متتالية. غير أن بعض مواسم الشتاء تغزر فيها الأمطار فتصبح سيولاً مدمرة، إذ يقوم في شرق مكة جدار جبلي شديد الانحدار، تتجمع عليه مياه الأمطار الغزيرة، فتكون سيولاً غزيرة وشلالات متدفقة، حتى أن المسجد الحرام غرق في منتصف عام ١٩٥٠ إلى عمق سبعة أقدام، ثم اتخذت الاحتياطات الهندسية للسيطرة على هذه السيول في العمارة الأخيرة للمسجد الحرام.

ونظراً لقدم مكة، ولقدوم الحجاج المسلمين إليها من كل حدب وصوب، واختيار بعضهم مكة بلداً دائماً لهم، فقد تنوع التكوين السكاني للمدينة. فبالإضافة إلى سكان مكة الأصليين، وجد فيها عناصر عربية وإسلامية عديدة منها العناصر اليمنية والحضارمة والشاميين والمصريين والمغاربة والأتراك، وعناصر جاوية من الملايو وأندونيسيا وباكستان وأفغانستان وإيران، ومن التتر والأكراد وبخارى، ومن مناطق عربية وإسلامية أخرى.

ومن الناحية التاريخية، يقال بأن الكعبة كانت خيمة لسيدنا آدم عليه

السلام، وإن الطوفان هدمها وبقيت مهدمة إلى مدة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ولما كان الطوفان زمن نوح عليه السلام مكثت الكعبة خراباً ألفي سنة حتى أمر الله تعالى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببناء البيت، وهو أول بيت وضع للناس، ثم بنته قريش قبل بعثة النبي محمد ﷺ بخمس سنين.

ومن البديهي القول إن الإسلام انطلق من مكة المكرمة إلى سائر أرجاء شبه الجزيرة العربية، ومن ثم إلى بلاد الشام ومصر والمغرب ومختلف مناطق العالم. وقد هاجر النبي منها إلى المدينة المنورة ثم عاد فافتتحها. وبعد عهود الخلفاء الراشدين، خضعت مكة للأمويين، ثم للعباسيين، فملوك الطوائف. وأهمها القرامطة عام ٣١٨هـ - ٩٣٠م على حين غرة ونهبوا وقتلوا الحُجاج وحملوا الحجر الأسود. في عام ١٥١٧م خضعت للعثمانيين. وبعد مضي أربعمائة عام أعلن فيها أميرها الشريف حسين بن علي استقلال العرب، ثم قام آل سعود بدور هام في مكة والمناطق الحجازية الأخرى، وبعد إعلان مملكة آل سعود ضمها ابن سعود إلى مملكته عام ١٩٢٤، وشهدت في عهدهم تطوراً واهتماماً بارزاً.

من معالمها الهامة المسجد الحرام وفي ركنه الحجر الأسود، وفيه حجر أبيض يقال إنه قبر إسماعيل عليه السلام. وفي الجهة الشرقية من الحرم قبة العباس وبئر زمزم. هذا وقد مر المسجد الحرام بتطورات أساسية منذ إنشائه حتى اليوم. وهو اليوم مسجد ضخم شاهق يصل ارتفاعه إلى حوالي ٢٤ متراً، تحيط به الساحات من كل جانب، ويقع في قعر الوادي بين جبال وسفوح مكة، بحيث لا تظهر الكعبة المشرّفة للواقف خارج المسجد.

ومن الخارج تحيط بالمسجد الحرام الأبنية الحديثة المتعددة التي تستوعب الأعداد الكبيرة من الحجاج الذين يصرون على أداء الصلوات الخمس في داخله. والنظام المعماري للمسجد تشبه عمارة مساجد القاهرة وتركيا. وواجهته من الرخام المائل إلى البياض. والأمر الملاحظ أن للمسجد الحرام سبع مآذن، ذلك لأن العدد (٧) هو من الأعداد المألوفة والمحببة، وأحياناً مقدسة لدى المسلمين، لارتباط ذلك بالسماوات السبع، وبالعدد (٧) الوارد في بعض الآيات القرآنية الكريمة. علماً أن أكثر أسوار المدن الإسلامية القديمة كان لها عادةً سبعة أبواب.

وشهد المسجد الحرام إضافات وتعديلات منذ صدر الإسلام، وقد جرت هذه التعديلات منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب. وفي العهد الأموي أمر الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٥هـ بإجراء بعض التعديلات، كما شهد المسجد إضافات في عهد الوليد بن عبد الملك. ثم في العهد العباسي وفي العهدين الأيوبي والمملوكي. وفي العصر العثماني أمر السلطان سليم المهندس التركي سنان بتجديد المسجد الحرام، وتوالت الإضافات في عهد السلاطين العثمانيين. كما شهد المسجد إضافات وتحسينات أساسية في عهد الأسرة السعودية الحاكمة في المملكة حيث اهتمت بتحسينه إهتماماً بالغاً، وما تزال حتى اليوم تدخل عليه التحسينات المستمرة حتى يستوعب ازدياد الحجاج سنوياً. وقد بلغت التحسينات أوجها في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.

ومن معالم مكة المكرمة: الكعبة الشريفة. وكانت كسوتها تعتبر شرفاً لمن يقدمها. وكان التقليد المتبع أن تأتي الكسوة من مقر الخلافة الإسلامية عبر التاريخ سواء من دمشق أو من بغداد أو من القاهرة أو من استانبول. وكانت الكسوة حتى قبل تطورات عام ١٩٧٧ تقدم من قبل مصر. وكان التقليد المتبع أن موكب الحج المصري يحمل الكسوة في موكب مهيب يسمى «المحمل» سنوياً. وكان الموكب المصري يغادر القاهرة في آخر أسبوع من شهر شوال، فيصل إلى مكة في سبعة وثلاثين يوماً وسط استقبال أهالي مكة والمسلمين القادمين من مختلف الأقطار. وكانت الكسوة عادةً تتألف من نسيج حريري مشجر ذي لون أسود، وعلى ارتفاع الكسوة يدور حزام مطرز بالذهب المغطى بآيات قرآنية. وكان أول حاكم مصري يسعى إلى كسوة الكعبة بعد زوال دولة العباسيين هو الظاهر بيبرس. وينقش على الكسوة عادةً عبارات: لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ الله جل جلاله ـ سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. أما اليوم فإن الكسوة أصبحت تصنع محلياً في المملكة العربية السعودية.

والكعبة التي تتوسط المسجد الحرام على شكل مكعب طوله (٤٠) قدماً وعرضه (٣٥) وارتفاعه (٥٠). وتتكون من حجر رمادي اللون جلب من الجبال المحيطة بمكة. وتتفق كل المصادر التاريخية والدينية على أن باني الكعبة هو إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام. وفي الكعبة الحجر

الأسود الذي اختلف أهل قريش على من سيحمله في فترة إعادة بناء قريش للكعبة، فاحتكموا إلى أول داخل من باب الصفا، فكان محمد الأمين، فحكم بينهم بأن وضع الحجر على ثوب رفعه ممثلو القبائل المختلفة من أطرافه، ورفع محمد الحجر ووضعه مكانه من البناء. وخضعت الكعبة في ما بعد للهدم والبناء في عهد ابن الزبير عام ٦٥هـ.

ومن معالم مكة المكرمة أيضاً مقام سيدنا إبراهيم في ساحة المسجد الحرام إلى جوار الكعبة وهو مصنوع من الذهب الخالص، ويتميز بالجمال ودقة الصناعة. ومن المعالم الأخرى جبل عرفة أو عرفات الذي يزدحم بالحجاج في موسم الحج قبل عيد الأضحى بيوم. كما توجد بعض الأماكن الدينية التي يحرص الحجاج على زيارتها اقتداء بالرسول محمد.

ما تزال مكة تزخر بالبيوت الفاخرة التي تعود إلى فترة العهد العثماني، ويظهر ذلك واضحاً من خلال نظامها المعماري لا سيما في حي الشبيكة. وبيوت مكة القديمة تتميز بوجود زخارف على موجوداتها الخشبية، لا سيما الحفر المتقن على الأبواب الخشبية الخارجية. أما أسواق مكة فإنها تعتبر معلماً هاماً من معالم المدينة حيث يكثر فيها التحف والأدوات النحاسية والفضية والذهبية والخشبية، كما يكثر السجاد والسبحات والهدايات المختلفة والمتنوعة التي يحرص الحجاج على اقتنائها تبركاً. بالإضافة إلى كثرة المكتبات التي تحوي الكتب الدينية والفقهية.

هذه الأسواق تشهد ازدحاماً لا مثيل له في فترة موسم الحج. ومن الملاحظ أن هذه الأسواق تضم في جنباتها المنتجات الواردة من مختلف بلدان العالم الإسلامي مثل مصر والشام وتركيا وإيران واليمن وأفغانستان وباكستان والهند والصين أيضاً. وكما أن الحجاج يحرصون على اقتناء ما يرونه من تحف وهدايا في أسواق مكة، فإنهم يحرصون في الوقت نفسه على جلب التمر ومياه زمزم بكميات ولو قليلة إلى بلادهم تبركاً لأنها من الأراضي المقدسة لتقديمها للمهنئين بالحج المبرور.

ومن المعالم الدينية في مكة الوادي المقدس الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وهو مجرد من كل زخارف الطبيعة. وهذا الوادي تحيط به الجبال الجرداء وليس في شعابها أشجار أو أنهار. غير أن حوله تقوم وظائف متعلقة

بقدسية المكان من فنادق وخدمات وتجارة وأسواق تلبية لمتطلبات الحجاج: هذا وقامت الحكومة السعودية بتنفيذ إعادة تخطيط مكة والوادي المقدس عامة، بهدف استيعاب الأعداد الهائلة من الحجاج المسلمين القادمين من مختلف بقاع الأرض، علماً أن تخطيط مكة هو عملية مستمرة وليست آنية.

ومن المعالم الأخرى في مكة غار حراء الذي كان يختلي فيه الرسول قبل الدعوة الإسلامية، وهناك غار ثور في جبل مكة، وهو الذي اختفى فيه الرسول محمد وأبو بكر (رضي الله عنه) هرباً من قريش.

وفي مكة مدارس ومعاهد شرعية تقوم بتدريس الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي. كما تقوم في مكة جامعة هامة هي جامعة أم القرى.

مكة المكرمة في القرآن الكريم

وعن مكة أم القرى أشار القرآن الكريم: وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ [الأنعام: ٩٢].

وفي قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ [الشورى: ٧].

وأشار الله عز وجل إلى أن صلاتهم عند الكعبة ليس إلا مكاء أي صغيراً: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنفال: ٣٥].

وفي قوله عز وجل عن مكة المكرمة والمسجد الحرام وتبوأ سيدنا إبراهيم البيت الحرام: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ [الحج: ٢٥ ـ ٢٧].

وفي قوله تعالى: إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ [النمل: ٩١].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: ٥٧ ـ ٥٩].

وعن مكة المكرمة وما حولها أوضح القرآن الكريم في سورة العنكبوت الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وورد في القرآن الكريم عن مكة المكرمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ [الفتح: ٢٤].

وفي سورة البلد أقسم الله عز وجل بمكة المكرمة في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ [البلد: ١ ـ ٢].

وفي سورة التين أقسم عز وجل بالتين والزيتون وسيناء الجبل الذي ناجى عليه موسى ربه وأقسم بالبلد الأمين أي مكة المكرمة بقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾ [التين: ١ ـ ٣].

وعن الكعبة المشرّفة أشار الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥].

وحول أول بيت وضع للناس في مكة المكرمة مقام إبراهيم وهو الحج أشار القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

وحول الكعبة أيضاً أشار القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ

وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ [المائدة: ٩٥].

وحول المسجد الحرام والحج والطواف وسلوك الحج والبيت العتيق أوضح القرآن الكريم في سورة الحج: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ [الحج: ٢٥ ـ ٣٣].

وحول الحج وجبل عرفات وقضاء المناسك والاستغفار قال الله عز وجل: ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ

﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ [البقرة: ١٩٧ ـ ٢٠٢].

كما أشار القرآن الكريم في آيات بينات إلى فريضة الحج وآدابه ومناسكه وإلى العمرة والنحر. ويتبين لنا في ضوء السور والآيات السابقة مدى تقديس القرآن الكريم والمسلمين لمكة المكرمة أم القرى وتعظيمهم لها.

ولا يمكن اعتبار مكة بلداً صناعياً أو زراعياً، فميزتها الأساسية في موقعها الديني وطبيعتها المقدسة، غير أن استقبالها للحجاج المسلمين جعلها مدينة تجارية ومدينة خدمات إسلامية، وانتعاش بعض الحرف والمهن التي يتطلبها هؤلاء الحجاج. والصناعة الرئيسية القائمة اليوم في مكة على مدار السنة هي صناعة الكسوة للكعبة الشريفة. وقد أقيم مصنع الكسوة في مكة خصيصاً للكعبة. كما يوجد في مكة مصنع تنقية وتعبئة مياه «عين زبيدة» في منطقة الشميسي.

ويستورد تجار مكة الحبوب والخضار والفواكه والطيب والبخور والعطور والسبحات والتحف والسيوف والخناجر والملابس والجلود، بالإضافة إلى المنتجات العصرية. ونظراً لكثرة الحجاج فقد أقيم في مكة أسواق متخصصة للشوام وللمصريين وللمغاربة، وللأفارقة وللأفغان وللصينيين، مع وجود أسواق مشتركة. وبشكل عام فإن مدينة مكة تعتبر المدينة الإسلامية الأولى المقدسة عند المسلمين، ثم تليها بعد المدن الأخرى في البلاد الحجازية ومدينة القدس في فلسطين. ومما يدل على قدسيتها وأهميتها ورود ذكرها باستمرار في القرآن الكريم. فقد أشار القرآن الكريم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦].

وأشار عز وجل في القرآن الكريم في آيات عديدة إلى مكة المكرمة والكعبة المشرفة والحج في قوله تعالى: ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ [المائدة: ٩٧].

مكـة المكرمـة
مـن خـلال رحلـة
ابـن جبيـر

مقدمة وتمهيد لنصوص الرحلة

ابن جبير هو أحد الرحالة العرب المسلمين الذين زاروا الأراضي المقدسة الشريفة، وهو أحد الذين دونوا مشاهداتهم الحيّة عادات وتقاليد وشعائر دينية ومواسم واحتفالات. وهو بذلك يعتبر أحد المعاصرين، ويعتبر كتابه مصدراً أساسياً ووثيقة تاريخية هامة.

وابن حبير هو أبو الحسين محمد بن جبير الكناني الأندلسي، من مواليد بلنسية سنة ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٥ م، وكانت وفاته في الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ ـ ١٢١٦ م.

ألف كتابه المعروف باسم «الرحلة» والموسوم باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» حوالي سنة ٥٨٢ هـ ـ ١١٨٦ م. وانتشر مخطوطاً في المغرب والمشرق، حق أن بعض الرحالة اقتبس عنه بعض ما جاء في رحلته مدعين قيامهم برحلات إلى المناطق التي زارها ابن جبير، إلى أن حققه ونشره «ويليام رايت» (william wrigt) الإنجليزي سنة ١٨٥٢ م، ثم راجعه بعد ذلك وطبعه الهولندي «دي غويه» (de goeje) سنة ١٩٠٧. وفي السنوات الأخيرة قام أكثر من محقق وأكثر من دار نشر عربية بإعادة تحقيقه ونشره.

ابتدأ ابن جبير رحلته الأولى تاركاً غرناطة مع صديقه أحمد بن حسان يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ ـ ٣ شباط (فبراير) ١١٨٣ م.

وانتقل من مدينة إلى مدينة ومن مرفأ إلى مرفأ. من الأندلس إلى صقلية، إلى الإسكندرية فالقاهرة، ثم إلى البحر الأحمر فجدة ومكة التي أقام بها ثمانية شهور تقريباً، فحج وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوي. ثم بعد ذلك سار إلى العراق وخراسان وكردستان والشام. والحقيقة فإن ابن جبير رحل إلى الشرق ثلاث مرات، كانت المرة الثالثة سنة ٦١٤ هـ ـ ١٢١٧ م.

لقد أشار ابن جبير بشيء من الدقة عن أقامته في الأراضي المقدسة بعد وصوله إلى مكة المكرمة في شهر ربيع الآخر من سنة ٥٧٩ هـ ـ، فوصف المسجد الحرم والبيت العتيق وأبواب الحرم الشريف التي ذكرها بأنها كانت في أيامه تسعة عشر باباً، كما ذكر آثار مكة وأخبارها الشريفة وبعض مشاهدها المعظمة. وتحدث عما رآه في شهر شعبان المكرم. وأما شهر رمضان المعظم فقد أوضح ابن جبير مدى الإحتفال بقدومه في المسجد الحرام بإضاءة الشموع والمشاعل حتى تلألأ الحرم نوراً وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقاً وهي: الشافعية، والحنبلية، والحنفية، والزيدية وكان لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قاريء يصلي بجماعة خلفه صلاة التراويح.

أما المؤذن المسحراتي فهو «الزمزمي» الذي كان يتولى التسحير في الصومعة في الركن الشرقي من المسجد، فيقوم في وقت السحور داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور. وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير، يبصر القنديلين في أعلى الصومعة، فإذا لم يبصرهما أيضاً علم أن وقت السحور قد انقضى.

وفي الثاني من رمضان طاف أمير مكة الأمير مكثر بن عيسى بن قاسم. . . بن أبي هاشم الحسني، وخرج للقاء الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي، وسط هتافات الناس وأدعيتهم له ولشقيقه صلاح الدين، وأدعية المؤذن الزمزي. وبعد أن أكمل طغتكين الطواف صلى خلف المقام، ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها، ثم خرج على باب الصفا إلى السعي. وقد توسع ابن جبير في وصف طواف طغتكين وفي حفل استقباله الباهر الذي أسماه «من الأيام الهائلة المنظر العجيبة المشهد. . .».

ووصف ابن جبير الكثير من الإحتفالات الرمضانية منها احتفال ليلة ثلاث وعشرين من رمضان لأحد أبناء المكيين الميسورين، فاحتفل والده بهذه الليلة احتفالاً بديعاً، فأعد ثريا من الشمع والفواكه الرطبة واليابسة، وأعد المصابيح والمشاعل. ثم وصف بقية الليالي الرمضانية بما فيها ليلة القدر الشريفة.

وفي الأول من شوال كان عيد الفطر السعيد الذي بدأ أهل مكة بالأعداد

له منذ الأيام الأخيرة من رمضان. وبعد صلاة الفجر، وصف ابن جبير كيف كان استعداد المسلمين بلبس الألبسة الجديدة، ومما قاله «لبس الناس أثواب عيدهم، وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام، لأن السُّنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس إليه، رغبة في شرف البقعة. . .».

الشيبيون أول من بكّر، وفتحوا باب الكعبة المقدسة، وأقام زعيمهم جالساً في العتبة المقدسة، وسائر اخوانهم داخل الكعبة، إلى أن أحسوا بوصول الأمير مكثر، فنزلوا إليه وتلقوه بمقربة من باب النبي ﷺ، فانتهى إلى البيت المكرم، وطاف حوله أسبوعاً، والناس قد احتفلوا لعيدهم، والحرم قد غص بهم، والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له متناوباً في ذلك مع أخيه. وكان مع الأمير مكثر أولاده ووزيره وحاشيته يحيطون به. وأشار ابن جبير إلى أن خطيب المسجد عندما كان يكبر في خطبته، كان المصلون يكبّرون بتكبيره. ثم صافح كل منهم الآخر معايداً. ثم انتشر الناس إلى زيارة الجبانة بالمعلى ثم صعد ابن جبير ومن معه إلى «مِنى» لمشاهدة المناسك المعظمة، ووصف بعد ذلك اجتماع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة. ثم أقبل القاضي بين رايتيه السوداويين لابساً ثياب البياض، وأخرج مقام الخليل ابراهيم ﷺ وعلى نبينا، ووضع على عتبة باب البيت المكرم، وأخرج مصحف عثمان رضي الله عنه من خزانته، ثم نودي في الناس بالصلاة جامعة، فصلى القاضي بهم ركعتين: قرأ في أحدهما: «سبح اسم ربك الأعلى» وفي الثانية «الغاشية».

وأشار ابن جبير إلى مدى القحط الذي أصاب أهل الحجاز، الذي أهلك مواشيهم نظراً لندرة الأمطار في الربيع والخريف، وفي الشتاء أيضاً حيث لم تمطر إلا قليلاً. وأوضح كيف أن أهل اليمن وصلوا في عدد كبير مؤملين في زيارة قبر الرسول محمد ﷺ، وجلبوا معهم ميرة إلى مكة على عادتهم، فأستبشر الناس بقدومهم استبشاراً كثيراً حتى أنهم اعتبروه تعويضاً عن نزول المطر.

وفي شهر ذي القعدة وصف ابن جبير بعض المشاهدات والأحداث التي جرت فيه، قائلاً: إن هذا الشهر المبارك هو ثاني الأشهر الحرم وثاني أشهر الحج. وأنه في يوم الإثنين الثالث عشرمنه دخل مع جمع إلى حيث كان مولد

النبي محمد ﷺ وهو مسجد حافل بالبنيان. وكان داراً لعبد الله بن عبد المطلب والد الرسول. وبإزائه محراب هفيل القرنصة، مرسومة طرته بالذهب. وهذا الموضع المبارك هو شرقي الكعبة متصل سفح الجبل، ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبي قبيس، وعلى مقربة منه أيضاً مسجد مكتوب عليه: «هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وفيه تربى رسول الله ﷺ، وكان داراً لأبي طالب عم النبي ﷺ وكافله».

وأشار ابن جبير إلى دخوله دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها وفيها أيضاً مولد فاطمة رضي الله عنها، وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما. وبعد أن فصَّل الأمكنة التي زارها أشار إلى أنه في يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة نُفِّذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد بن اسماعيل، وانتهاب منزله، وصرفه عن حجابة البيت الحرام، وذلك لهنات نسبت إليه لا تليق بمن إنيطت به سدانة البيت العتيق، ولكن عفي عنه فيما بعد وسلم مفاتيح الكعبة مجدداً بعد أن دفع خمسمائة دينار مكية.

ووصف ابن جبير تدفق اليمنيين إلى الأراضي المقدسة وما أحدثوه من رغد وسعة في الحال بسبب غناهم وكثرتهم، فقد توالى وصولهم ومعهم الأطعمة والفواكه «فأرغدوا البلد، ولولاهم لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر في جهد ومشقة، فهم رحمة لهذا البلد الأمين...».

بعد ذلك دخل ابن جبير مع آخرين إلى دار خيزران التي كان منها منشأ الإسلام، وهي بإزاء الصفا، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال رضي الله عنه. وأشار إلى مقعد النبي محمد ﷺ والصخرة التي كان إليها مستنده، وإلى موضع أبي بكر الصديق وعلي ابن أبي طالب، وعن الدار التي كان فيها اسلام عمر بن الخطاب.

ولما دخل شهر ذي الحجة وهو الشهر الثالث المبارك من الأشهر الحرم وهو شهر موسم الحج، أشار ابن جبير إلى اختلاف الشهادات حول رؤية هلال هذا الشهر من قبل أهل المغرب وأهل مصر فشهدوا عند القاضي برؤيته فردهم أقبح رد، وجرّح شهاداتهم أسوأ تجريح. وطلب القاضي جمال الدين التيقن والتأكد من الهلال قبل الإدلاء بالشهادة. ثم وصف ابن جبير فرحة

المسلمين في مكة بعد تيقنهم وإثبات يوم الجمعة على أنه وقفة العيد. وكان قد وصف مناسكهم وحلهم وترحالهم في مختلف أماكن الحج، موضحاً إلى أن عددالحجاج لا يحصى «فمن الآيات البينات أن يسع الجمع العظيم هذا البلد الأمين. ولو أن المدن العظيمة حمل عليها هذا الجمع لضاقت عنه. وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات في اتساعها لهذا البشر المعجز إحصاؤه، إلا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها تتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها، وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة بهذا البلد الحرام، عظم الله حرمته، ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله».

هذا وقد أشار ابن جبير إلى وجود بعض الأمراء المسلمين في الحج ومنهم: الأمير عثمان بن علي صاحب عدن، والأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وأمير الحج العراقي أبو المكارم طاشتكين، والملكة خاتون بنت الأمير مسعود ملك مناطق الأرمن وما يلي بلاد الروم، ومعها الملكة ام معز الدين صاحب الموصل زوجة بابك شقيق نور الدين، والملكة ابنة الدقوس صاحب أصبهان من بلاد خراسان وسواهم. ولما كان يوم الخميس بكّر الناس بالصعود إلى منى ومنها إلى عرفات للوقوف يوم الجمعة التي أشار رسول الله إلى أن الوقفة في هذا اليوم الكريم تعادل سبعين وقفة. غير أن ابن جبير أشار إلى تخوف الحجاج من بني شعبة المغيرين عليهم وهم في طريقهم إلى عرفات، وحمّل مسؤولية السلب إلى الأمير عثمان صاحب عدن نفسه، الذي توافد مع جماعته بأسلحتهم إلى المضيق الواقع بين مزدلفة وعرفات لنهب الحجاج، وكيف أن الأمير سيف الإسلام الأيوبي لاحقه ونال منه ومن منهوباته.

وبعد أن وصف ابن جبير واقع الحال في منى وعرفات ومزدلفة وبطن عُرنة وجبل الرحمة، أشار أنه في أعلى الجبل قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه. وفي أسفل الجبل المقدس دار عتيقة البنيان تنسب إلى آدم عليه السلام. وعن يسار الدار الصخرة التي كان عندها موقف النبي ﷺ. وحول جبل الرحمة والدار المكرمة صهاريج للماء وجباب ومسجد صغير. ثم أشار إلى مسجد قديم ينسب إلى ابراهيم عليه السلام، وفيه يخطب يوم الوقفة، ثم يجمع بين الظهر والعصر.

ومن خلال ما رآه ابن جبير أشار إلى أن يوم الجمعة أصبح في عرفات جمع لا شبيه له إلا الحشر، وسمع من كبار السن أنهم لم يروا قط في عرفات جمعاً أحفل منه في السنوات الماضية، وإن هذا الإزدحام لم يكن ما يماثله إلا عندما حج هارون الرشيد، وكان آخر من حج من الخلفاء حتى عهد ابن جبير.

كما وصف ابن جبير وصول أمير الحج العراقي في جمع كبير، ووصل معه الكثير من أمراء الأعاجم الخراسانيين، ومن النساء وبنات الأمراء، ومن سائر العجم عدد لا يحصى. فوقف الجميع، وقد جعلوا قدوتهم في النفر الإمام المالكي. وإن من عادة هؤلاء الخراسانيين أن يحمل كلاً منهم شمعة بيده.

ولما انتهى الناس إلى منى، بادروا إلى رمي جمرة العقبة سبع من الحصى، ثم نحروا رؤوس الماشية، وحلوا من كل شيء إلا الإنسان والطيب. . . وفي اليوم الثاني من يوم النحر خطب الخطيب بمسجد الخيف، وهو كان قد وصل مع أمير الحج العراقي مبعوثاً من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة، ويعرف باسم تاج الدين «وظاهر أمره البلادة والبله، لأن خطبته أعربت عن ذلك، ولسانه لايقيم الإعراب». ثم مضت الإقامة بثلاثة أيام بعد يوم النحر بمنى لإكمال رمي سبعين حصاة.

لقد أشار ابن جبير إلى عمليات الشراء والبيع، والتخوف من سودان أهل مكة وأتراك العراق، وإلى عمليات نهب أمتعة التجار، ذلك لأن منى في تلك الأيام سوق من أعظم الأسواق. كما أشار إلى كسوة الكعبة المشرفة المحمولة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال، تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية، والرايات على رأسه، والطبول تدق وراءه، وابن عم الشيبي محمد بن اسماعيل معها. وقد وضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة، ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك من ذي الحجة اشتغل الشيبيون بأسبالها خضراء يانعة، وفي أعلاه رسم أحمر واسع مكتوب فيه في الصفح الموجه إلى المقام الكريم بعد البسملة «إن أول بيت وضع للناس. . .» وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن الكريم وذكر الخليفة أيضاً.

ويبدو أن المسلمين الأعاجم كانوا يقبلون بحماس شديد على الكسوة

للمسها، مما دعا واضعيها إلى ترتيبها في وضع تصان فيه من اللمس والتمزيق. وقد أشار ابن جبير إلى ذلك. ثم أضاف أنه «في هذه الأيام يفتتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي. فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم. ووصول بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه، يؤدي إلى تلف المهج وكسر الأعضاء... وقد فقد منهم في ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله والله يغفر للجميع».

ووصف ابن جبير مدى بلاغة واعظ خراساني القى خطبة باللغة العربية واللغة الفارسية في آن واحد، مما أثار حماسة المصلين الذين دهشوا بفصاحته وبراعته وحسن بيانه. وأشار أيضاً إلى خطيب آخر له من البراعة الخطابية في اللغتين أيضاً ما حرك الأنفس والمشاعر والقلوب. وأوضح مدى عمق الوعاظ في إجاباتهم على تساؤلات المصلين في مختلف المجالات بإسناد علمي يدل على مقدرتهم العلمية. بالإضافة إلى قراء القرآن الكريم وحلاوة وجمال أصواتهم الشجية «كأنها المزامير الداوودية».

وفي أيام الموسم عاد المسجد الحرام سوقاً عظيمة يباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البر إلى الدر، إلى غير ذلك من السلع، وكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب بني شيبة، ومعظم السوق في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ومن الشمال إلى الشرق «وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم».

لقد أقام ابن جبير في مكة والأراضي الشريفة ما يقارب ثمانية شهور وقد أدى الحج ومناسكه حامداً الله على فضله، ومما قاله: «فكانت مدة مقامنا بمكة ـ قدسها الله ـ من يوم وصولنا إليها، وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين [وخمسمائة] إلى يوم إقلاعنا من الزاهر، وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر وثلث شهر التي هي ـ بحسب الزائد والناقص من الأشهر ـ مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوماً سعيدات مباركات ـ جعلها الله لذاته، وجعل القبول لها موفقاً لمرضاته بمنه ـ غبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام: يوم عرفة، وثاني يوم النحر، ويوم الأربعاء الذي هو الحادي والعشرون لذي الحجة قبل يوم

الخميس يوم أقلاعنا من الزاهر، والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه».

لقد أفادنا ابن جبير في كثير من جوانب الحياة الدينية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية والهندسية والتقاليد التي كانت سائدة في تلك الفترة في مكة المكرمة والأراضي الشريفة، مع الإشارة إلى مناطق وأحياء وعلماء وإمراء وملوك وملكات وصفها وأشار إليها، مما يمكن الإستفادة منه في التاريخ الإجتماعي والسياسي والإقتصادي، علماً أنه فصل أساليب البيع والشراء في الأسواق وأنواع المنتجات الموجودة. يبقى القول أن رحلة ابن جبير تبقى وثيقة أصلية وأساسية في دراسة فترة هامة من فترات التاريخ الإسلامي الوسيط. وتزداد أهميتها عندما تبين أن بعض كتب الرحلات التي جاءت بعد ابن جبير نقلت عنه الكثير من المعلومات دون الإشارة إليه، مما يلقي ظلالاً من الشك حول تلك الكتب وتلك الرحلات التي أطلق على مؤلفيها إسم «رحالة».

نص رحلة
ابن جبير
إلى مكة المكرمة

رحلة ابن جبير إلى مكة المكرمة

. . . وفي عشي يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور، وهو الثاني من شهر أغشت، كان انفصالنا من جدة، بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضاً، وثبتت أسماؤهم في زمام عند قائد جدة على بن موفق، حسبما نفذ إليه أمر ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر بن عيسى المذكور. وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن على رضوان الله عليهما، لكنه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم رضي الله عنهم.

وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا القرين مع طلوع الشمس، وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحط رحالهم، ومنه يحرمون، وبه يريحون اليوم الذي يصبحونه، فإذا كان في عشية رفعوا وأسروا ليلتهم، وصبحوا الحرم الشريف ـ زاده الله تشريفاً وتعظيماً ـ والصادرون من الحج ينزلون به أيضاً ويسرون منه إلى جدة وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة، والحاج بسببها لا يحتاجون إلى تزود الماء غير ليلة أسرائهم إليه.

فأقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين، فلما حان العشي رحنا منه محرمين بعمرة، فأسرينا ليلتنا تلك، فكان وصولنا مع الفجر إلى قريب الحرم، فنزلنا مرتقبين لإنتشار الضوء، ودخلنا مكة، حرسها الله، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور، وهو الرابع من شهر أغشت، على باب العمرة.

وكان أسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والقمر قد ألقى على السيطه شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، الأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، الألسنة تصج بالدعاء، وتبتهل إلى الله بالرعباء، فتارة تشتد بالتلبية وآونة تتضرع بالأدعية. فيالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقد. فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنات الدهر.

إلى أن وصلنا في الساعة المذكورة، من اليوم المذكور، حرم الله العظيم، ومبوّأ الخليل ابراهيم، فألفينا الكعبة البيت الحرام عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوظة بوفود الرحمن. فطفنا طواف القدوم، ثم صلينا بالمقام الكريم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم ـ وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة ـ ودخلنا قبة زمزم، وشربنا من مائها، وهو «لما شرب له» كما قال ﷺ، ثم سعينا بين الصفا والمروة، ثم حلقنا وأحللنا، فالحمد الله الذي كرمنا بالوفادة عليه، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيمية إليه، وهو حسناً ونعم الوكيل.

وكان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة إلى الحلال، قريباً من الحرم ومن باب السدة، أحد أبوابه، في حجرة كثيرة المرافق المسكنية، مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة.

شهر جمادى الأولى، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الإثنين الثاني والعشرين لأغشت، وقد كمل لنا بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ ثمانية عشر يوماً. فهلال هذا الشهر أسعد هلال أجتلته أبصارنا فيما سلف من أعمارنا، طلع علينا وقد تبوأنا مقعد الجدار الكريم، وحرم الله العظيم، والقبة التي فيها مقام ابراهيم مبعث الرسول، ومهبط الروح الأمين جبريل بالوحي والتنزيل. فأوزعنا الله شكر هذه المنة، وعرفنا قدر ما خصنا به من نعمة، وختم لنا بالقبول، وأجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل، ولطيف التيسير والتسهيل، بعزته وقدرته لا إله سواه.

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه

البيت المكرم له أربعة أركان، وهو قريب من التربيع، وأخبرني زعيم الشيبيين الذين إليهم سدانة البيت ـ وهو محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن ابن. . . . من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار، صاحب رسول الله ﷺ، وصاحب حجابة البيت ـ أن ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني، تسع وعشرون ذراعاً وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب إنصباب السطح إلى الميزاب.

فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود، ومنه ابتداء الطواف، ويتقهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به والبيت المكرم عن يساره.

وأول ما يلقى بعده الركن العراقي وهو ناظر إلى جهة الشمال، ثم الركن الشامي وهو ناظر إلى جهة الغرب، ثم الركن اليماني وهو ناظر إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة الشرق، وعند ذلك يتم شوطاً واحداً.

وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود، وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار مخففة، وذلك الموضع الذي بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم، وهو موضع استجابة الدعاء.

والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف، وهو من فضة مذهبة، بديع الصنعة رائق الصفة، يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً للمهابة التي كساها الله بيته، وعضادتاه كذلك، والعتبة العليا كذلك أيضاً، وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز، في سعته مقدار شبرين، وللباب نقارتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب، وهو ناظر للشرق، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار.

وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كلها رخام مجزع، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول، وبين كل عمود وعمود أربع خُطئ، وهي على طول البيت متوسطة فيه، فأحد الأعمدة ـ وهو أولها ـ يقابل نصف الصفح الذي يحف به الركنان اليمانيان، وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خُطئ، والعمود الثالث ـ وهو آخرها ـ يقابل الصفح الذي يحف به الركنان العراقي والشامي.

ودائر البيت كله، من نصفه الأعلى، مطلى بالفضة المذهبة الثخينة، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها، وهي تحفّ بالجوانب الأربعة، وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون.

وظاهر الكعبة كلها، من الأربعة جوانب، مكسو بستور من الحرير الأخضر، وسداها قطن، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر، فيه مكتوب «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة» الآية، واسم الإمام الناصر لدين الله في

سعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها. قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي دمصره أشكال محاريب رائقة، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى، وبالدعاء للناصر العباسي المذكور الآمر بإقامتها، وكل ذلك لا يخالف لونها. وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون ستراً، وفي الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر، وفي الصفحين الصغيرين ستة عشر، وله خمسة مضاو، وعليها زجاج عراقي بديع النقش، أحدهما في وسط السقف، ومع كل ركن مضوي، والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد. وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة، واحدها من ذهب.

وأول ما يلقي الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، وقد علاهما في الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة. وفي الركن الذي يليه ـ وهو اليماني ـ كذلك، لكنهما انقلعا، وبقي العود الذي كانا ملصقين عليه، وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان، وفي جهة الركن العراقي كذلك.

وعن يمينه الركن العراقي، وفيه باب يسمى باب الرحمة، يصعد منه إلى سطح البيت المكرم، وقد قام له قبو، فهو متصل بأعلى سطح البيت، داخله الأدراج، وفي أوله البيت المحتوي على المقام الكريم، فتجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان، وفي سعة صفحية قامتان، وهو محتو على الركن العراقي بنصفين من كل صفح، وثلثا قناة هذا القبو مكسوان بسرق الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع.

وهذا المقام الكريم، الذي داخل هذا القبو، هو مقام ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه، وهو حجر مغشى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين، وأعلاه أوسع من أسفله، فكأنه ـ وله التنزيه والمثل الأعلى ـ كانون فخار كبير، أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه. عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله، وصب لنا في أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه، نفعنا الله به وأثرهما بيِّن وأثر الأصابع المكرمة المباركة، فسبحان من ألانه لواطئه حتى أثرت فيه ولا تأثير القدم في الرمل الوثير، سبحان جاعله من الآيات البينات.

ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هول يشعر النفوس من الذهول، ويطيش

الأفئدة والعقول، فلا تبصر إلا لحظات خاشعة، وعبرات هامعة، ومدامع باكية، وألسنة إلى الله عز وجل ضارعة داعية.

وبين الباب الكريم والركن العراقي حوض طوله إثنا عشر شبراً ونصف، وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة عضادة الباب التي تلي الركن المذكور، آخذا إلى جهته، وهو علامة وموضع المقام مدة ابراهيم عليه السلام، إلى أن صرفه النبي ﷺ إلى الموضع الذي هو الآن مصلى، وبقي الحوض المذكور مصباً لماء البيت إذا غسل، وهو موضع مبارك، يقال أنه روضة من رياض الجنة، والناس يزدحمون للصلاة فيه، مفروش برملة بيضاء وثيرة.

وموضع المقام الكريم هو الذي يصلي خلفه، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي، وهو إلى الباب أميل بكثير، وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد، مركنة محددة بديعة النقش، سعتها من ركنها الواحد إلى الثاني أربعة أشبار.

وقد نصبت على الموضع الذي كان فيه المقام وحوله تكفيف من حجارة، نصت على حرف كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شبر، وطوله خمس خطى، وعرضه ثلاث خطى، وأدخل المقام إلى الموضع الذي وصفناه في البيت الكريم احتياطاً عليه، بينه وبين صفح البيت الذي يقابله سبع عشرة خطوة، والخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار، ولموضع المقام أيضاً قبة مصنوعة من حديد، موضوعة إلى جانب قبة زمزم. فإذا كان في أشهر الحج، وكثر الناس، ووصل العراقيون والخراسانيون، رفعت قبة الخشب، ووضعت قبة الحديد لتكون أحمل للإزدحام.

ومن الركن الذي فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقي أربعة وخمسون شبراً مخففة، ومن الحجر الأسود إلى ستة أشبار، فالطويل يتطأمن إليه، والقصير يتطاول إليه. ومن الركن العراقي إلى الركن الشامي ثمانية وأربعون شبراً مخففة، وذلك داخل الحجر، وأما من خارج فمنه إليه أربعون خطوة، وهي مائة وعشرون شبراً مخففة، ومن خارجه يكون الطواف. ومن الركن الشامي إلى الركن اليماني ما [مساحته] من الركن الأسود إلى العراقي، لأنه الصفح الذي يقابله. ومن اليماني إلى الأسود ما [مساحته] من العراقي إلى الشامي داخل الحجر، لأنه الصفح الذي يقابله.

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كانها الرخام حسناً، منها سود وسمر وبيض، قد ألصق بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطى، إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدت إليها حتى أحاطت به. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة.

وبين الركن العراقي وبين أول جدار الحجر مدخل إلى الحجر سعته أربع خطى، وهي ست أذرع محققة كلناها باليد، وهذا الموضع الذي لم يحجر عليه، هو الذي تركت قريش من البيت، وهو ست أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح، ويقابله عند الركن الشامي مدخل آخر على مثال تلك السعة.

وبين جدار البيت الذي تحت الميزاب، والذي يقابله من جدار على خط إستواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبراً، وسعته من المدخل إلى المدخل ست عشرة خطوة، وهي ثمانية وأربعون شبراً. وهو ـ يعني دور الجدار ـ رخام كله مجزع بديع الإلصاق. . . . . . قضبان صفر مذهبة، وضع منها في صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض، وصفات محاريب، فإذا ضربت الشمس فيها، لاح لها بصيص ولألاء يخيل للناظر إليها أنها ذهب يرتمي بالأبصار شعاعه، وفي ارتفاعه جدار هذا الحجر الرخامي خمسة أشبار ونصف، وسعته أربعة أشبار ونصف.

داخل الحجر بلاط واسع، ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثاً دائرة، وهو مفروش بالرخام المجزع، المقطع في دور الكف إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك، ثم ألصق بانتظام بديع، وتأليف معجز الصنعة، غريب الإتقان، رائق الترصيع والتجزيع، زائع التركيب والرصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية، وسواها على اختلاف أنواعها وصفتها، ما يقيد بصره حسناً، فكأنه يجيله في أزهار مفروشة مختلفات الألوان، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام إنعطاف القسي، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة.

وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب، أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق، والتشجير والتقضيب ما لا يحدثه صنع اليدين في السكاغد قطعاً بالجلمين، فمرآهما عجيب، أمر بصنعتهما على هذه الصفة

إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن، ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي، رضي الله عنه.

ويقابل الميزاب في وسط الحجر، وفي نصف جداره الرخامي، رخامة قد نقشت أبدع نقش، وحفت بها طرة منقوشة نقشاً مكحلاً عجيباً، فيه مكتوب، مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد، الناصر لدين الله أمير المؤمنين، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة.

والميزاب في أعلى الصفح الذي يلي الحجر المذكور، وهو من صفر مذهب قد خرج إلى الحجر بمقدار أربع أذرع، وسعته مقدار شبر، وهذا الموضع تحت الميزاب هو أيضاً مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى، وكذلك الركن اليماني، ويسمى المستجار ما يليه، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي.

وتحت الميزاب، في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم، قبر إسماعيل ﷺ وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلاً بشكل محراب، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما غريبة المنظر، فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلاً كأنها تجزيع، وهي أشبه الأشياء بالنكت التي في البيدق من حل الذهب فيه. وإلى جانبه، مما يلي الركن العراقي، قبر أمه هاجر رضي الله عنهما، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف. يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر، وحق لهم ذلك، لأنهم من البيت العتيق، وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين، نورَّهما الله، ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما، وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار.

قبة وبئر زمزم

وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة، والمقام المذكور الذي يصلى خلفه عن يمين القبة، ومن ركنها إليه عشر خطئ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض، وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذي يقابل البيت المكرم، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعناه، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر.

وباب القبة ناظر إلى الشرق، وبابا قبة العباس وقبة اليهودية ناظران إلى

الشمال والركن من الصفح ـ الناظر إلى البيت العتيق من القبة المنسوبة إلى اليهودية ـ يتصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية، فبينهما هذا القد من الإنحراف.

وتلي قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب، وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه، وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم، من مصاحف وكتب وأتوار شمع وغير ذلك. والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية لأنها كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل لسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد.

وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض الصاقا لا تحيله الأيام وأفرغ في أثنائه الرصاص وكذلك داخل التنور، وحفت به من أعمدة الرصاص الملصقة إليه ـ إبلاغاً في قوة لزه ورصه ـ إثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله، ودوره أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغلظه شبر ونصف.

وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس إليها، ويتوضأون عليها.

الحجر الأسود والأبواب

والحجر الأسود المبارك ملصق في الركن الناظر إلى جهة المشرق، ولا ندري قدر ما دخل في الركن، وقيل أنه داخل في الجدار بمقدار ذراعين، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد، وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال أن القرمطي ـ لعنه الله ـ كان الذي كسره، وقد شدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه الصقيل، فيبصر الرائي من ذلك منظراً عجيباً هو قيد الأبصار، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم، حتى يود اللاثم ألا يقلع فمه عنه، وذلك خاصة من خواص العناية الإلهية، وكفى أن النبي ﷺ قال: «وإنه يمين الله في أرضه»، نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيق إليه بمنه.

وفي القطعة الصحيحة من الحجر ـ مما يلي جانبه الذي يلي يمين المستلم له إذا وقف مستقبله ـ نقطة بيضاء صغيرة مشرقة، تلوح كأنها خال في تلك الصفحة المباركة، وفي هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر إليها يجلو البصر، فيجب على المقبل أن يقصد بتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع.

والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات، على ثلاث سوار من الرخام، منتظمة كأنها بلاط واحد، ذرعها في الطول أربعمائة ذراع، وفي العرض ثلثمائة ذراع، فيكون تكسيره محققاً ثمانية وأربعين مرجعاً، وما بين البلاطات فضاء كبير، وكان على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ صغيراً وقبة زمزم خارجة عنه.

وفي مقابلة الركن الشامي رأس سارية ثابتة في الأرض، منها كان حد الحرم أولاً، وبين رأس السارية وبين الركن الشامي المذكور اثنتان وعشرون خطوة، والكعبة في وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب، وعدد سواريه الرخامية ـ التي عددتها بنفسي ـ أربعمائة سارية وإحدى وسبعون سارية، حاشى الجصية التي منها في دار الندوة، وهي التي زيدت في الحرم، وهي داخلة في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، ويقابلها المقام مع الركن العراقي، وفضاؤها متسع يدخل من البلاط إليه.

ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب، تحت قسي حنايا، يجلس فيها النساخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة، والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم، وفي جدار البلاط الذي يقابله أيضاً مصاطب تحت حنايا على تلك الصفة، وهو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق.

وسائر البلاطات تحت جدارتها مصاطب دون حنايا عليها، والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون، وعند باب ابراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب، فيه أيضاً سوار جصية، ووجدت بخط أبي جعفر بن علي الفنكي القرطبي الفقيه المحدث أن عدد سواريه أربعمائة وثمانون، لأني لم أحسب التي خارج باب الصفا.

وللمهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي، في توسعة المسجد

الحرام والتأنق في بنائه، آثار كريمة، وجدت في الجهة التي من الغرب إلى الشمال، مكتوباً في أعلى جدار البلاط «أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ بتوسعةالمسجد الحرام لحج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة».

وللحرم سبع صوامع: أربع في الأربعة جوانب، وواحدة في دار الندوة، وأخرى على باب الصفا ـ وهي أصغرها، وهي علم لباب الصفا، ولا يصعد إليها لضيقها ـ وعلى باب ابراهيم صومعة قد ذكرت عند باب ابراهيم فيما بعد.

وباب الصفا يقابل الركن الأسود، في البلاط الذي من الجنوب إلى الشرق، وفي وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان الركن المذكور، فيهما منقوش «أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ بإقامة هاتين الأسطوانتين، علماً لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا، ليتأسى به حاج بيت الله وعماره، على يدي يقطين بن موسى وابراهيم بن صالح، في سنة سبع وستين ومائة».

وفي باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب، رائق الخط، طويل الحروف غليظها، يرتمي الأبصار برونقه وحسنه، مكتوب فيه «مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين ـ صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين ـ في سنة خمسين وخمسمائة، في صفحتي البابين، على هذا النص المذكور».

ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة، بديعة النقش، تصعد إلى العتبة المباركة وتشف عليها، وتستدير بجانبي البابين، ويعترض أيضاً بين البابين ـ عنذ إغلاقهما ـ شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة، هي بطول البابين، متصلة بالواحد، منهما الذي عن يسار الداخل إلى البيت.

وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه، وهي أربع وثلاثون شقة: في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع، وفي

الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضاً، وفي الصفح بين العراقي والشامي ثمان، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمان أيضاً. قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب.

وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص، في ارتفاعه أزيد من شبر، وفي سعته شبران أو أزيد قليلاً، في داخله خشب غير ظاهر، وقد سمرت فيه أوتاد حديد في رؤوسها حلقات حديد ظاهرة، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول، واستدار بالجوانب الأربعة، وبعد أن وضع في أذيال الستور شبه حجز السراويلات، وأدخل فيها ذلك المرس، وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة، ومجتمع الستور في الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة، ثم منها إلى إعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها في بعض.

واستدار أيضاً بأعلاه على جوانب السطح، تكفيف ثان، وقعت فيه أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة، فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل، وثيقة الأزرار، لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها. فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه.

وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة، إلا في رجب فإنه يفتح في كل يوم، وفتحه أول بزوغ الشمس.

يُقبِّل سدنة البيت الشيبيون، فيبادر منهم من ينقل كرسياً كبيراً شبه المنبر الواسع، له تسعة أدراج مستطيلة، قد وضعت له قوائم من الخشب متطأمنة مع الأرض، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض، يجري الكرسي عليها حتى يصل إلى البيت الكريم، فيقع درجه الأعلى متصلاً بالعتبة المباركة من الباب.

فيصعد زعيم الشيبيين إليه ـ وهو كهل جميل الهيئة والشارة ـ وبيده مفتاح القفل المبارك، ومعه من السدنة من يمسك في يده ستراً أسود، يفتح يديه به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبي المذكور، فإذا فتح القفل قبَّل العتبة، ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضاً ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول.

وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم، يقف الناس مستقبلين إياه بأبصار خاشعة، وأيد مبسوطة إلى الله ضارعة. وإذا انفتح الباب كبَّر الناس، وعلا ضجيجهم، ونادوا بألسنة مستهلة: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين. ثم دخلوا بسلام آمين.

وفي الصفح المقابل للداخل فيه، الذي هو من الركن اليماني إلى الركن الشامي، خمس رخامات منتصبات طولاً كأنها أبواب، تنتهي إلى مقدار خمسة أشبار من الأرض، وكل واحدة منها نحو القامة، الثلاث منها حمر، والإثنتان خضراوان، في كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظراً منه، كأنه فيها تنقيط، فتتصل بالركن اليماني منها الحمراء، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء. والموضع الذي يقابلها متقهقراً عنها بثلاثة أذرع، هو مصلى النبي ﷺ، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركاً به.

ووضعهن على هذا الترتيب، وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور، ويتصل بينهما رخام أبيض صافي اللون ناصع البياض، قد أحدث الله عز وجل في أصل خلقته أشكالاً غريبة مائلة إلى الزرقة مشجرة مغصنة، وفي التي تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال، كأنها مقسومة، فلو انطبقتا لعاد كل شكل يصافح شكله، فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة، عندما نشرت انشقت على تلك الأشكال، فوضعت كل واحدة بإزاء أختها، والفاصل منها بين كل خضراء وحمراء رخامتان، سعتها خمسة أشبار لأعداد الأشبار المذكورة، والأشكال فيها تختلف هيئاتها، وكل أخت منها بإزاء أختها. وقد شدت جوانب هذه الرخامات بتكافيف، غلظتها قدر أصبعين، من الرخام المجزع من الأخضر والأحمر المنقطين، والأبيض ذي الخيلان، كأنها أنابيب مخروطة بحار الوهم فيها.

فأعترضت في هذا الصفح المذكور من فُرج الرخام الأبيض ست فرج، وفي الصفح الذي عن يسار الداخل ـ وهو من الركن الأسود إلى اليماني ـ أربع رخامات: اثنتان خضراوان، واثنتان حمراوان، وبينهما خمس فرج من الرخام الأبيض، وكل ذلك على الصفة المذكورة.

وفي الصفح الذي عن يمين الداخل ـ وهو من الركن الأسود إلى العراقي ـ ثلاث: اثنتان حمراوان، وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام

الأبيض. وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذي فيه باب الرحمة، وسعته ثلاثة أشبار، وطوله سبعة وعضادته التي عن يمينك إذا استقبله رخامة خضراء في سعة ثلثي شبر. وفي الصفح الذي من الشامي إلى العراقي ثلاث: اثنتان حمراوان، وواحدة خضراء، ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض على الصفة المذكورة.

ويكلل هذا الرخام المذكور طرتان، واحدة على الأخرى، سعة كل واحدة منهما قدر شبرين ذهب مرسوم في اللازورد، قد خط فيه خط بديع، وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى، والجهة التي عن يمين الداخل لها طرة واحدة، وفي هاتين الطرتين بعض مواضع دارسة.

وفي كل ركن من الأركان الأربعة ـ مما يلي الأرض ـ رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركن، وتكتنف أيضاً كل بابين من الفضة اللذين في كل ركن كأنهما طاقان، عضادتان من الرخام الأخضر صغيرتان على قدر نقبيهما.

وفي أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء، وفي آخره مثلها، والخضراء بينهما على الترتيب المذكور. إلا الصفح الذي عن يسار الداخل، فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الأسود رخامة خضراء، ثم حمراء إلى كمال الترتيب الموصوف.

المقام والمنبر والخطيب والمؤذن

وبإزاء المقام الكريم منبر الخطيب، وهو أيضاً على بكرات أربع شبه التي ذكرناها فإذا كان يوم الجمعة، وقرب وقت الصلاة، ضم إلى صفح الركن الأسود والعراقي، فيسند المنبر إليه.

ثم يقبل الخطيب داخلاً على باب النبي ﷺ ـ وهو يقابل المقام في البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال ـ لابساً ثوب سواد مرسوماً بذهب، ومتعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً، وعليه طيلسان شرب رقيق ـ كل ذلك من كساء الخليفة التي يرسلها إلى خطباء بلاده ـ يرفل فيها، وعليه السكينة والوقار، يتهادى رويداً بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين وبين يديه ساعياً أحد القومة، وفي يده عود مخروط أحمر قد ربط في رأسه

مرس من الأديم المفتول، رقيق طويل، في طرفه عذبة صغيرة، ينفضها بيده في الهواء نفضاً، فتأتي بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه، كأنه إيذان بوصول الخطيب، لا يزال في نفضها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقعة.

فإذا قرب من المنبر عرج إلى الحجر الأسود فقبّله ودعا عنده، ثم سعى إلى المنبر، والمؤذن الزمزمي ـ رئيس المؤذنين بالحرم الشريف ـ ساعياً أمامه، لابساً ثياب السود أيضاً، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له. فعند صعوده في أول درجة، قلده المؤذن المذكور السيف، ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين، ثم في الثانية، ثم في الثالثة، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة، ثم انفتل يمينه وشماله، وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيرد الناس عليه السلام.

ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالأذان على لسان واحد، فإذا فرغوا قام للخطبة، فذكر ووعظ وخشع فأبلغ، ثم جلس الجلسة الخطيبية، وضرب بالسيف ضربة خامسة، ثم قام للخطبة الثانية، فأكثر بالصلاة على محمد، ﷺ وعلى آله، ورضي عن أصحابه، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضي الله عن جميعهم، ودعا لعمي النبي، ﷺ، حمزة والعباس وللحسن والحسين، ووالى الترضي عن جميعهم، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ورضي عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ، ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسني، ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ولولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان.

وإذا أحب الله يوماً عبده ... ألقى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الإعتناء بهم. وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم.

وفي هذا التاريخ أعلمنا بأن كتابه وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله التوصية بالحاج، والتأكد في مبرتهم وتأنيقهم، ورفع أيدي الإعتداء عنهم،

والإيعاز في ذلك إلى الخدام والأتباع والأوزاع. وقال: أنه إنما نحن وأنت متقلبون في بركة الحاج. فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم، وإحسان الله يتضاعف على من أحسن إلى عباده، واعتناؤه الكريم موصول لمن جعل همته الإعتناء بهم، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين، إنه ولي ذلك لا رب سواه.

وفي أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر، ويمسكهما رجلان من المؤذنين، وفي جانبي باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما مركوزتين، فإذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقعة أمامه على الصفة التي دخل عليها، كأن ذلك أيضاً ايذان بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة، ثم أعيد المنبر إلى موضعه بإزاء المقام.

وليلة أهل هلال الشهر المذكور ـ وهو جمادى الأولى ـ بكر أمير مكة مكثر المذكور، في صبيحتها، إلى الحرم الكريم مع طلوع الشمس، وقواده يحفون به، والقراء يقرأون أمامه، فدخل على باب النبي ﷺ، ورجاله السودان ـ الذين يعرفونهم بالحرَّابة ـ يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب، وهو في هيئة اختصار، عليه السكينة والوقار وسمت سلفه الكريم رضي الله عنهم، لابساً ثوب بياض، متقلداً سيفاً مختصراً، متعمماً بكُرزية صوف بيضاء رقيقة.

فلما انتهى بإزاء المقام الكريم وقف، وبسط له وطاء كتان فصلى ركعتين، ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبَّله، وشرع في الطواف، وقد علا في قبة زمزم صبي، هو أخو المؤذن الزمزمي، هو أول المؤذنين أذاناً، به يقتدون وله يتبعون، وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم.

فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً، وبقرب من الحجر، يندفع الصبي في أعلى القبة، رافعاً صوته بالدعاء، ويستفتحه بصبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة، ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيل الدعاء والثناء، ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم، وذكر سابقة النبوة رضي الله عنها، ثم يسكت.

فإذا أظل من الركن اليماني يريد الحجر، اندفع بدعاء آخر على ذلك

الأسلوب، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأُخر في ذلك المعنى بعينه، كأنها منتزعة من قصائد مدح بها، هكذا في السبعة الأشواط إلى أن يفرغ منها، والقراء في أثناء طوافه أمامه. فينتظم من هذه الحال والأبهة، وحسن صوت ذلك الداعي على صغره ـ لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها ـ وحسن الكلام الذي يورده نثراً ونظماً، وأصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل، مجموع يحرك النفوس ويشجيها، ويستوكف العيون ويبكيها، تذكراً لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً.

فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين، ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً، ثم ولى منصرفاً وحلقته تحف به، ولا يظهر في الحرم إلا لمستهل هلال آخر، هكذا دائماً.

ملامح البيت العتيق

والبيت العتيق مبني بالحجارة الكبار الصم السمر، قد رص بعضها على بعض، وألصقت بالعقد الوثيق الصاقاً لا تحيله الأيام، ولا تقصمه الأزمان. ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليماني، فسمرت بمسامير فضة، وأعيدت كأحسن ما كانت عليه، والمسامير فيها ظاهرة. ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد، وله التنزيه الأعلى.

وحمام الحرم لا تحصى كثرة، وهي من الأمن بحيث يضرب بها المثل، ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة، ولا تحل فيه بوجه ولا على حال، فترى الحمام تتجلل على الحرم كله، فإذا قربت من البيت عرجت عنه يميناً أو شمالاً، والطيور سواها كذلك. وقرأت في أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه، فأما أن يموت لحينه أو يبرأ. فسبحان من أورثه التشريف والتكريم.

ومن آياته أن بابه الكريم يفتح في الأيام المعلومة المذكورة، والحرم قد غص بالخلق، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز وجل، ولا يبقى فيه موضع إلا ويصلي فيه كل أحد، ويُتلاقى الناس عند الخروج منه، فيسأل بعضهم بعضاً: هل دخل البيت ذلك اليوم؟ فكل يقول: دخلت وصليت في موضع كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع. ولله الآيات البينات، والبراهين المعجزات، سبحانه وتعالى.

ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار، ولا وقتاً من الليل، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به. فسبحان من كرمه وعظمه، وخلد له التشريف إلى يوم القيامة.

وفي أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة، وهو مشرف كله بشرفات مبسوطة مركنة، في كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كأنها أيضاً شرفات أُخر صغار، والركن الأسفل منها متصل بالركن الذي يليه من الشرفة الأخرى، وتحت كل صلة منها ثقب مستدير في دور الشبر، منفوذ يخترقه الهواء، يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر، فيلوح كأنها أقمار مستديرة يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها، كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة، ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل.

وفي النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة، شقة من الجص معترضة بين الشرفات مخرمة فرجية، طولها نحو الثلاثين شبراً تقديراً، يقابل كل شقة منها صفحاً من صفحات الكعبة المقدسة، قد علت الشرفات كالتاج.

وللصوامع أيضاً أشكال بديعة، وذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائقة النقش عجيبة الوضع، قد أحاط بها شباك من الخشب غريب الصنعة، وارتفع عن الشباك عمود في الهواء كأنه مخروط مختم كله بالآجر تختيماً يتداخل بعضه على بعض، بصنعة تستميل الأبصار حسناً، وفي أعلى ذلك العمود الفحل، وقد استدار به أيضاً، شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها، وهي متميزة الأشكال كلها، لا يشبه بعضها بعضاً، لكنها على هذا المثال المذكور من كون نصفها الأول مركناً، ونصفها الأعلى عموداً ركن له.

وفي النصف الأعلى من قبة زمزم، والقبة العباسية التي تسمى السقاية، والقبة التي تليها منحرفة عنها يسيراً المنسوبة لليهودية، صنعة من قرنصة الخشب عجيبة، قد تأنق الصانع فيها، وأحدق بأعلاها شباك مشرجب من الخشب رائق الحلل والتفاريج، وداخل شباك قبة زمزم سطح، وقد قام في وسطه شبه فحل الصومعة، وفي ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمي، وقد

انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص، واستقر في رأسه صفحة حديد تتخذ مشعلاً في شهر رمضان المعظم.

وفي الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من زجاج معلقة، توقد كل ليلة، وفي الصفح الذي عن يمينه كذلك ـ وهو الناظر إلى الشمال ـ وفي كل جانب منها ثلاثة شراجيب مقومة كأنها أبواب، قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة، منها ما هو مفتول فتل السوار، ولا سيما الجانب الذي يقابل الحجر الأسود من قبة زمزم، فإن سواريه في نهاية من اتقان الصنعة، قد أدير بكل سارية منها رؤس ثلاثة أو أربعة، وتحت ما بين كل رأس ورأس. . . . وأحدثت، فيه صنائع من النقض عجيبة المنظر، وربما فتل بعضها على الصفة السوارية. وهذا الجانب الذي يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تتصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة، يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع، لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لأن الحجر الأسود أمامك، والباب الكريم مع البيت قبالتك، والمقام عن يمينك، وباب الصفا عن يسارك، وبئر زمزم وراء ظهرك، وناهيك بهذا.

وينطبق على كل شرجب من تلك الشراجيب أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعضها كأنها شراجيب آخر، وأحد أركان شباك الخشب المحدق بالقبة العباسية تتصل بأحد أركانه شباك قبة اليهودية حتى يتماسا، فمن يكون في أعلى سطح هذه نفتل إلى سطح الأخرى من الركنين المذكورين، وداخل هذه القباب صنعة من القرنصة الجصية رائقة الحسن.

أئمة الحرم

وللحرم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل» أثر قول المؤذن «حي على الفلاح» وهم روافض سبابون، والله من وراء حسابهم وجزائهم، ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون ظهراً أربعاً، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

فأول الأئمة السنية الشافعي رحمه الله وإنما قدمنا ذكره لأنه المقدم من

الإمام العباسي، وهو أول من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم ﷺ وعلى نبينا الكريم. إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة، وربما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي، أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه، فترى كل أذن مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو، ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس.

ثم المالكي رحمه الله، وهو يصلي قبالة الركن اليماني، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها.

ثم الحنفي رحمه الله، وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له، وهو أعظم الأئمة أبهة، وأفخرهم آلة من الشمع وسواها، بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه، فالاحتفال له كثير، وصلاته آخراً.

ثم الحنبلي رحمه الله، وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ويصلي الظهر والعصر قريباً من الحنفي في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، والحنفي يصليهما في البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه، ولا حطيم له.

وللشافعي بإزاء المقام حطيم حفيل. وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على تلك الصفة، قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع، واعترض في أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها، قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج، وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشب.

وللحنفي بين الرجلين الجصتين المنعقدتين على الخشب، محراب يصلي فيه. وللحنبلى حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي، وهو منسوب لرامشت أحد الأعاجم ذوي الثراء، وكانت له في الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله، ويقابل الحجر حطيم معطل أيضاً ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول.

ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق، وعلى بعد منه يسيراً، مشاعيل توقد في صحاف حديد فوق خشب مركوزة، فيتقد الحرم الشريف كله نوراً، ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة في محاريبهم، والمالكي أقلهم شمعاً وأضعفهم حالاً، لأن مذهبه في هذه البلاد غريب، والجمهور على مذهب الشافعي، وعليه علماء البلاد وفقهاؤها إلا الاسكندرية وأكثر أهلها مالكيون، وبها الفقيه ابن عوف، وهو شيخ كبير من أهل العلم مثل بقية الأئمة المالكية.

وفي أثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم ـ ولها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا ـ رافعاً صوته بالدعاء للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله، ثم للأمير مكثر، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنياب الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعاً مما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه في أرضه. ثم يصل ذلك بدعاء لأمراء اليمن من جهة صلاح الدين، ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل، هكذا دأبه دائماً أبداً.

وفي القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة، أصحاب رسول الله ﷺ، وبخط زيد بن ثابت رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله ﷺ، وينقص منه ورقات كثيرة، وهو بين دفتي عود مجلد بمغاليق من صفر، كبير الورقات واسعها، عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه، نفع الله بالبينة في ذلك.

وأعلمنا صاحب القبة، المتولي لعرضه علينا، أن أهل مكة متى أصابهم قحط، أو نالتهم شدة في أسعارهم، أخرجوا المصحف المذكور، وفتحوا باب البيت الكريم، ووضعوه في العتبة المباركة مع المقام الكريم ـ مقام الخليل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم ـ واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم إلى الله متوسلين، فلا

ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم، والله لطيف بعباده لا إله سواه.

وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها إليه ـ وناهيك بهذا الجوار الكريم ـ كدار زبيدة، ودار القاضي، ودار تعرف بالعجلة، وسواها من الديار، وحول الحرم أيضاً ديار كثيرة تطيف به، ذات مناظر وسطوح، يخرج منها إلى سطح الحرم، فيبيت أهلها فيه، ويبردون ماءهم في أعالي شرفاته، فهم من النظر إلى البيت العتيق دائماً في عبادة متصلة، الله يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه.

وألفيت بخط الفقيه الزاهد الورع، أبي جعفر الفلكي القرطبي، أن ذرع المسجد الحرام في الطول والعرض ما أثبته أولاً، وطول مسجد رسول الله ﷺ ثلاثمائة ذراع، وعرضه مائتان، وعدد سواريه ثلاثمائة، ومباراته ثلاث، فيكون تكسيره أربعة وعشرين مرجعاً من المراجع المغربية، وهي خمسون ذراعاً في مثلها.

وطول مسجد بيت المقدس ـ أعاده الله للإسلام ـ سبعمائة وثمانون ذراعاً، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية، وقناديله خمسمائة، وأبوابه خمسون باباً، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعاً وخمسى مرجع.

ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله

للحرم تسعة عشر باباً أكثرها مفتح على أبواب كثيرة حسبما يأتي ذكره إن شاء الله.

باب الصفا: يفتح على خمسة أبواب، وكان يسمى قديماً بباب بني مخزوم.

باب الخلقيين: ويسمى باب جياد الأصغر، مفتح على بابين، وهو محدث.

باب العباس رضي الله عنه: وهو يفتح على ثلاثة أبواب.

باب علي رضي الله عنه: مفتح على ثلاثة أبواب.

باب النبي ﷺ: يفتح على بابين.

باب صغير أيضاً بإزاء باب بني شيبة المذكور، لا اسم له.

باب بني شيبة: وهو يفتح على ثلاثة أبواب، وهو باب بني عبد شمس، ومنه كان دخول الخلفاء.

باب دار الندوة: ثلاثة، البابان من دار الندوة منتظمان، والثالث في الركن الغربي من الدار، فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين باباً.

باب صغير بإزاء باب بني شيبة، شبه خوخة الأبواب، لا اسم له، وقيل أنه يسمى باب الرباط، لأنه يدخل منه لرباط الصوفية.

باب صغير لدار العجلة محدث.

باب السدة واحد.

باب العمرة واحد.

باب حزورة على بابين.

باب إبراهيم ﷺ واحد.

باب ينسب لحزورة أيضاً على بابين.

باب جياد الأكبر على بابين.

باب جياد الأكبر أيضاً على بابين.

باب ينسب لجياد أيضاً على بابين.

ومنهم من ينسب البابين من هذه الأبواب الأربعة الجيادية إلى الدقاقين، والروايات فيها تختلف، لكنا اجتهدنا في اثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة، والله المستعان لا رب سواه.

وباب إبراهيم ﷺ، هو في زاوية كبيرة متسعة، فيها دار المكناس الفقيه الذي كان إمام المالكية في الحرم رحمه الله، وفيها أيضاً غرفة هي خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم، والزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب وخارجة عنه.

وبإزاء الباب المذكور، عن يمين الداخل عليه، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة، فيها تخاريم في الجص، مستطيلة الشكل كأنها محاريب، قد حفت قرنصة غريبة الصنعة، وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو، يقترب من الصومعة ارتفاعها، قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم

القرنصية، يعجز عنها الوصف، وظاهرها أيضاً تقاطيع في الجص كأنها أرجل ممدودة، قد تركبت دائرة على دائرة، وفحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجص، مفتح ما بين رجل ورجل، وخارج باب إبراهيم بئر تنسب إليه عليه السلام.

وإنما بديء بباب الصفا لأنه أكبر الأبواب، وهو الذي يخرج عليه إلى السعي، وكل وافد إلى مكة ـ شرفها الله ـ يدخلها بعمرة، فيستحب له الدخول على باب بني شيبة، ثم يطوف سبعاً ويخرج على باب الصفا، ويجعل طريقه بين الأسطوانتين اللتين أمر المهدي ـ رحمه الله ـ بإقامتهما علماً لطريق رسول الله ﷺ، إلى الصفا، حسبما تقدم ذكره، وبين الركن اليماني وبينهما ست وأربعون خطوة، ومنهما إلى باب الصفا ثلاثون خطوة، ومن باب الصفا إلى الصفا ست وتسعون خطوة.

وللصفا أربعة عشر درجاً، وهو على ثلاثة أقواس مشرقة، والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة، وقد أحدقت به الديار، وفي سعته سبع عشرة خطوة، وبين الصفا والميل الأخضر ما يأتي ذكره.

والميل سارية خضراء، وهي خضرة صباغية، وهي التي إلى ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم على قارعة المسيل إلى المروة وعن يسار الساعي إليها، ومنها يرمل في السعي إلى الميلين الأخضرين، وهما أيضاً ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة: الواحدة منهما بإزاء باب عليٍّ في جدار الحرم وعن يسار الخارج من الباب، والميل الآخر يقابله في جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر، وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج، ألفيت فيه منقوشاً برسم مذهب **﴿أن الصفا والمروة من شعائر الله﴾** الآية، وبعدها «أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته، أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة».

الصفا والمروة وقبر آدم عليه السلام

وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل إلى الميلين خمس وسبعون خطوة ـ وهي مسافة الرمل جائياً وذاهباً من الميل إلى الميلين،

ثم من الميلين إلى الميل ـ ومن الميلين إلى المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة، فجميع خُطى الساعي من الصفا إلى المروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة. وأدراج المروة خمسة، وهي بقوس واحد كبير، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة).

وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها.

وعلى الحرم الشريف جبل أبي قبيس، وهو في الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الأسود، وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد، وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة، ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه.

وقرأت في «أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرقي أنه أول جبل خلقه الله عز وجل، وفيه استودع الحجر زمن الطوفان، وكانت قريش تسميه الأمين لأنه أدى الحجر إلى إبراهيم ﷺ، وفيه قبر آدم صلوات الله عليه، وهو أحد أخشبي مكة، والأخشب الثاني الجبل المتصل بقعيقعان في الجهة الغربية.

صعدنا إلى جبل أبي قبيس المذكور، وصلينا في المسجد المبارك، وفيه موضع موقف النبي ﷺ، عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز وجل. وناهيك بهذه الفضيلة والبركة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، حتى الجمادات من مخلوقاته، لا إله سواه.

وفي أعلاه آثار بناء جص مشيد كان اتخذه معقلاً أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور، فهدمه عليه أمير الحج العراقي لمخالفة صدرت عنه، فغادره خراباً.

وألفيت منقوشاً على سارية خارج باب الصفا ـ تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبي ﷺ، إلى الصفا داخل الحرم متقدمتي الذكر ـ «أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله تعالى، بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة

سبع وستين ومائة». فدل ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة في وسط المسجد، وكان يظن بها الانحراف إلى جهة باب الصفا، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكيل، فوجدنا الأمر صحيحاً حسبما تضمه رسم السارية.

وتحت ذلك النقش، في أسفل السارية، منقوش أيضاً: «أمر عبد الله (محمد) المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله، بتوسعة الباب الأوسط الذي بين هاتين الأسطوانتين، وهو طريق رسول الله ﷺ، إلى الصفا»، وفي أعلى السارية التي تليها منقوش أيضاً «أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله، بصرف الوادي إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم ﷺ، وتوسعته بالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره»، وتحتها أيضاً منقوش ما تحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط.

والوادي المذكور هو الوادي المنسوب لإبراهيم ﷺ، ومجراه على باب الصفا المذكور. وكان السيل قد خالف مجراه، فكان يأتي على المسيل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم، فكان مدة مده بالأمطار يطاف حول الكعبة سبحاً. فأمر المهدي، رحمه الله، برفع موضع في أعلى البلد يسمى رأس الردم، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه، واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذي يسمى المسفلة، ويخرج عن البلد، ولا يجري الماء فيه إلا عند نزول ديم المطر الكثير. وهو الوادي الذي عنى ﷺ بقوله ـ حيث حكى الله تبارك وتعالى عنه ـ **﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾**. فسبحان من أبقى له الآيات البينات.

ذكر مكة، شرفها الله تعالى، وآثارها الكريمة وأخبارها الشريفة

هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها، وهي بطن واد مقدس كبير مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، ولها ثلاثة أبواب:

أولها «باب المعلي»: ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة، وهي بالموضع الذي يعرف بالحجون، وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها إلى طريق العمرة، وتلك الثنية تعرف بكداء، وهي التي عنى حسان بقوله في شعره: «تثير النقع موعدها كداء».

فقال النبي ﷺ يوم الفتح: «دخلوا من حيث قال حسان»، فدخلوا من تلك الثنية. وهذا الموضع الذي يعرف بالحجون هو الذي عناه الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم، وفيه الموضع الذي صلب فيه الحجاج بن يوسف ـ جازاه الله ـ جثة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

وعلى الموضع بقية علم ظاهر إلى اليوم وكان على مبنى مرتفع، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور.

وعن يمينك إذا استقبلت الجبانة المذكورة، مسجد في مسيل بين جبلين، يقال إنه المسجد الذي بايعت فيه الجن النبي ﷺ، وشرف وكرم.

وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف، وطريق العراق، والصعود إلى عرفات ـ جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها ـ وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال، وهو إلى الشرق أميل.

ثم «باب المسفل»، وهو إلى جهة الجنوب، وعليه طريق اليمن، ومنه كان دخول خالد بن الوليد، رضي الله عنه، يوم الفتح.

ثم «باب الزاهر»، ويعرف أيضاً بباب العمرة، وهو غربي، وعليه طريق مدينة الرسول ﷺ، وطريق الشام وطريق جدة، ومنه يتوجه إلى التنعيم، وهو أقرب ميقات المعتمرين، يخرج من الحرم إليه على باب العمرة، ولذلك أيضاً يسمى هو بهذا الاسم.

والتنعيم من البلدة على فرسخ، وهو طريق حسن فسيح، فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة. وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل، تلقى مسجداً بإزائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة، يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش داثر الرسم، يقال إنه الموضع الذي قعد فيه النبي ﷺ، مستريحاً عند مجيئه من

العمرة، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه ـ وحق ذلك لهم ـ ويستندون إليه لتنال أجسامهم بركة لمسه.

ثم بعد هذا الموضع، بمقدار غلوة، تلقى على قارعة الطريق، من جهة اليسار للمتوجه إلى العمرة، قبرين قد علتهما أكوام من الصخر عظام، يقال إنها قبر أبي لهب وامرأته لعنهما الله، فما زال النسا في القديم إلى هلم جرًّا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة، حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان، ثم تسير منها بمقدار ميل، وتلقى الزاهر، وهو مبتنى على جانبي الطرق يحتوي على دار وبساتين، والجميع ملك أحد المكيين.

وقد أحدث في المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء، ومراكن مملوءة للوضوء وهى القصارى الصغار، وفي الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة، فيجد المعتمرون فيها مرفقاً كبيراً للطهور والوضوء والشرب، فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر والثواب، وكثير من الناس المتأجرين من يعينه على ما هو بسبيله، وقيل إن له من ذلك فائداً كبيراً.

وعن جانبي الطريق في هذا الموضع جبال أربعة: جبلان من هنا، وجبلان من هنا، عليها أعلام من الحجارة، وذكر لنا أنها الجبال المباركة التي جعل إبراهيم، عليه السلام، عليها أجزاء الطير ثم دعاهن ـ حسبما حكى الله عز وجل سؤاله إياه، جلا وعلا، أن يريه كيف يحيي الموتى ـ وحول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها، وقيل إن التي جعل إبراهيم عليها الطير سبعة منها، والله أعلم.

وعند إجازتك الزاهر المذكور، تمر بالوادي، المعروف بذي طوى، الذي ذكر أن النبي ﷺ، نزل فيه عند دخول مكة. وكان ابن عمر، رضي الله عنهما، يغتسل فيه وحينئذ يدخلها، وحوله آبار تعرف بالشبيكة، وفيه مسجد يقال إنه مسجد إبراهيم عليه السلام. فتأمل بركة هذا الطريق، ومجموع الآيات التي فيه، والآبار المقدسة التي اكتنفته.

وتجيز الوادي إلى مضيق تخرج منه إلى الأعلام التي وضعت حجزاً بين الحل والحرم، فما داخلها إلى مكة حرم، وما خارجها حل، وهي كالأبراج

مصفوفة كبار وصغار واحد بإزاء آخر على مقربة منه، تأخذ من أعلى الجبل الذي يعترض عن يمين الطريق في التوجه إلى العمرة، وتشق الطريق إلى أعلى الجبل عن يساره، ومنه ميقات المعتمرين، وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلي المعتمرون فيها ويحرمون منها. ومسجد عائشة، رضي الله عنها، خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين، وإليه يصل المالكيون، ومنه يحرمون. وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التي حول الأعلام المذكور وأمام مسجد عائشة، رضي الله عنها، مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن عجيب ما عرض علينا بباب بني شيبة المذكور عَتَبٌ من الحجارة العظام، طوال كأنها مصاطب، صفت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبني شيبة، ذكر لنا أنها الأصنام التي كانت قريش تعبدها في جاهليتها ـ وكبيرها هبل بينها ـ قد كُبَّت على وجوهها تطأها الأقدام، وتمتهنها بأنعلتها العوام، ولم تغن عن أنفسها ـ فصلاً عن عابديها ـ شيئاً، فسبحان المنفرد بالوحدانية، لا إله سواه. والصحيح في أمر تلك الحجارة أن النبي، ﷺ، أمر يوم فتح مكة بكسر الأصنام وإحراقها، وهذا الذي نقل إلينا غير صحيح، وإنما تلك التي على الباب حجارة منقولة، وعنيت القوم بتشبيهها إلى الأصنام لعظمها.

ومن جبال مكة المشهورة ـ بعد جبل أبي قبيس ـ «جبل حراء»، وهو في الشرق، على مقدار فرسخ أو نحوه، مشرف على منى، وهو مرتفع في الهواء عالي القنة. وهو جبل مبارك، كان النبي ﷺ، كثيراً ما ينتابه ويتعبد فيه، واهتز تحته فقال له النبي ﷺ: «ولتكن حراء، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد»، كان معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ويروى «أثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان» وكان عثمان رضي الله عنه معهم. وأول آية نزلت من القرآن على النبي، ﷺ، نزلت في الجبل المذكور، وهو آخذ من الغرب إلى الشمال، ووراء طرفه الشمالي جبانة الحجون التي تقدم ذكرها.

وسور مكة إنما كان من جهة المعلي ـ وهو مدخل إلى البلد، ومن جهة المسفل، وهو مدخل أيضاً إليه، ومن جهة باب العمرة، وسائر الجوانب ـ جبالاً لا تحتاج معها إلى سور، وسورها اليوم منهدم إلا آثاره الباقية وأبوابه القائمة.

ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة

مكة، شرفها الله، كلها مشهد كريم. كفاها شرفاً ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم، وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم، وأنها حرم الله وأمنه، وكفاها أنها منشأ النبي، ﷺ، الذي آثره الله بالتشريف والتكريم، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم. فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل، وأول مهبط الروح الأمين جبريل، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين، وهي أيضاً مسقط رؤوس جماعة من الصحابة القرشيين، المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين، ونجوماً للمهتدين.

فمن مشاهدها التي عاينها قبة الوحي، وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وبها كان ابتناء النبي ﷺ بها، وقبة صغيرة أيضاً في الدار المذكورة، فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفيها أيضاً ولد سيدَيْ شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهما. وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة، قد بنيت بناء يليق بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبي ﷺ، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهر، بني عليه مسجد لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به. والموضع المقدس الذي سقط فيه ﷺ ساعة الولادة السعيدة المباركة، التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين، محفوف بالفضة. فيا لها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام، ومولد خير الأنام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وسلم تسليماً.

يفتح هذا الموضع المبارك، فيدخله الناس كافة متبركين به، في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبي ﷺ، وفي اليوم المذكور ولد ﷺ، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها، وهو يوم مشهور بمكة دائماً.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً دار الخيزران، وهي الدار التي كان النبي ﷺ يعبد الله فيها سراً، مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم، حتى نشر الله الإسلام منها على يديي الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكفى بهذه الفضيلة.

ومن مشاهدها أيضاً: دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهي اليوم دارسة الأثر، ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه، يقال إنه كان يسلم على النبي ﷺ متى اجتاز عليه. وذكر أنه جاء يوماً، ﷺ، إلى دار أبي بكر رضي الله عنه، فنادى به ـ ولم يكن حاضراً ـ فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور، وقال: يا رسول الله ليس بحاضر. وكانت من إحدى آياته المعجزات ﷺ.

ومن مشاهدها: قبة بين الصفا والمروة، تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي وسطها بئر يقال إنه كان يجلس فيها للحكم رضي الله عنه. والصحيح في هذه القبة أنها قبة حفيده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبإزاء داره المنسوبة إليه، وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة، كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين ويقال إن البئر كانت في القديم فيها، ولا بئر فيها الآن لأنا دخلناها فألفيناها مسطحة، وهي حفيلة الصنعة.

وكانت بمقربة من الدار التي نزلنا فيها دار جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، ذي الجناحين. وبجهة المسفل ـ وهو آخر البلد ـ مسجد منسوب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، يحف به بستان حسن، فيه النخيل والرمان وشجر العناب، وعاينا فيه شجر الحناء، وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب، يقال إنه كان مختبأ له رضي الله عنه من المشركين الطالبين له.

وعلى مقربة من دار خديجة رضي الله عنها المذكورة، وفي الزقاق الذي الدار المكرمة فيه، مصطبة فيها متكأ يقصد الناس إليها، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها، لأن في موضعها كان موضع قعود النبي ﷺ.

ومن الجبال التي فيها أثر كريم، ومشهد عظيم الجبل المعروف «بأبي ثور»، وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد، وفيه الغار الذي أوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق رضي الله عنه، حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز. وقرأت في كتاب «أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرقي أن الجبل نادى النبي ﷺ، فقال: «إليَّ يا محمد، إليَّ يا محمد، فقد آويت قبلك نبياً».

وخص الله عز وجل نبيه فيه بآيات بينات: فمنها أنه، ﷺ، دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع، فلما اطمأنا فيه، أمر الله العنكبوت

فاتخذت عليه بيتاً، والحمام فصنعت عليه عشاً وفرخت، فانتهى المشرفون إليه بدليل قصاص للأثر، مستاف أخلاق الطريق، فوقف لهم على الغار وقال: هنا انقطع الأثر، فاما صعد بصاحبكم من ههنا إلى السماء أو غيض به في الأرض. ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار، والحمام مفرخة فيه، فقالوا: ما دخل هنا أحد. فأخذوا في الانصراف.

فقال الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع؟ فقال رسول الله: «ولو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك». وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر من الغار ـ ولم يكن فيه شق ـ فانفتح للحين فيه باب بقدرة الله عز وجل، وهو سبحانه قدير على ما يشاء.

وأكثر الناس ينتابون هذه الغار المبارك، ويتجنبون دخوله من الباب الذي أحدث الله عز وجل فيه، ويرومون دخوله من الشق الذي دخل النبي ﷺ تبركاً به. فيمتد المحاول لذلك على الأرض، ويبسط خده بإزاء الشق، ويولج يديه ورأسه أولاً، ثم يعالج إدخال سائر جسده: فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه، فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر، فينشب ويلاقي مشقة وصعوبة، حتى يتناول بالجذب العنيف من وراءه.

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب، ولا سيما يتصل به سبب آخر مخجل فاضح، وذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذي لا يسع عليه، ويتمسك فيه ولا يلجه، ليس لرشدة. جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعاً على صحته لا يشكون. فبحسب المنتشب فيه، المتعذر ولوجه عليه، ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل، زائداً إلى ما يكابده بدنه من اللز في ذلك المضيق، وإشرافه منه على المنية توجعاً وانقطاع نفس وبرح ألم. فالبعض من الناس يقولون في مثل: «ليس يصعد جبل أبي ثور إلا ثور».

وعلى مقربة من هذا الغار، في الجبل بعينه، عمود منقطع من الجبل قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار نصف القامة، وانبسط له في أعلاه شبه الكف خارجاً عن الذراع، كأنه القبة المبسوطة، بقدرة الله عز وجل، يستظل تحتها نحو العشرين رجلاً، وتسمى قبة جبريل ﷺ.

ومما يجب أن يثبت ويؤثر، لبركة معاينته وفضل مشاهدته، أن في يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى ـ وهو التاسع من شتنبر ـ أنشأ الله بحرية، فتشاءمت فانهلت عينا غديقة، كما قال رسول الله ﷺ، وذلك إثر صلاة العصر، ومع العشى من اليوم المذكور، فجاءت بمطر جَوْد.

وتبادر الناس إلى الحجر، فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم يتلقون الماء الذي يصبه الميزاب برؤوسهم أيديهم وأفواههم، مزدحمين عليه ازدحاماً عظيماً أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيباً، ودعاؤهم قد علا، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء.

والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع وقلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به، وكان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك، ويخرج إليهن ويعصره في أيدي البعض منهن، فتلقينه شرباً ومسحاً على الوجوه والأبدان.

وتمادت تلك السحابة المبارك إلى قريب المغرب، وتمادى الناس ـ على تلك الحال من الازدحام ـ على تلقي ماء الميزاب بالأيدي والوجوه والأفواه، وربما رفعوا الأواني ليقع فيها، فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله وكرمه، ولما اقترن بها من القرائن المباركة.

فمنها أنها كانت عشية الجمعة، وفضل اليوم فضله، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر، وقد وقف الناس تحت الميزاب، وهو من المواضع التي يستجاب فيها الدعاء، وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق الذي هو حيال البيت المعمور، وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب، واختص من رحمة الله تعالى بذنوب، ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين، إنه غفور رحيم.

وذكروا أن الإمام أبا حامد الغزالي دعا الله عز وجل بدعوات، وهو في حرمه الكريم، في رغبات رفعها إلى الله جل وتعالى، فأعطى بعضاً ومنع بعضاً، وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة، وكان تمنى أن يغتسل به تحت

الميزاب، ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم في الساعة التي أبواب سمائه فيها مفتوحة، فمنع ذلك وأجيب دعاءه في سائر ما سأله، فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا. ولعل عبداً من عباده الصالحين، الوافدين على بيته الكريم، خصه الله بهذه الكرامة، فدخلنا جميع المذنبين في شفاعته. والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده، ولا يجعلنا من شقى بدعائه، إنه منعم كبير.

ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية، وذلك أن الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله ﷺ: **﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**، وقال عز وجل: **﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾**.

فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كل مكان، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد ـ فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ـ ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعمَّ جميعها بالمنفعة التجارية.

كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها ـ مع طول الأيام ـ من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع، ولا ذخيرة من الذخائر، إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، وآية من آياتها التي خصها الله بها.

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألفيناها تغص بالنعم والفواكه: كالتين والعنب والرمان والسفرجل

والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار، إلى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة.

وأكثر هذه البقول ـ كالباذنجان والقثاء والبطيخ ـ لا يكاد ينقطع مع طول العام، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول.

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك، فتجد رائحة العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب، أو بجنى النحل اللباب، ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا ـ لعمر الله ـ إنه لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت.

وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل، يعرف عندهم بالمسعودي، وأنواع اللبن بها في نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة. ويجلب إليها قوم من اليمن ـ يعرفون بالسرو ـ نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر في نهاية الطيب، ويحلبون معه من اللوز كثيراً. وبها قصب السكر أيضاً كثير، يجلب من حيث تجلب البقول التي ذكرناها، والسكر بها كثير محلوب، وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله.

وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر العقود على صفات شتى، إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة، وفي الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطه بين الصفا والمروة، ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها، لا بمصر ولا بسواها، قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية، وجليت في منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً، فتقيد الأبصار، وتستنزل الدرهم والدينار.

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب. قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق، وضرب نواحي الأقطار، أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا، وما ذاك ـ والله أعلم ـ إلا لبركة مراعيها، هذا على إفراط سمنه، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن للفظته الأفواه ودكاً، ولعافته وتجنبته، والأمر في هذا بالضد، كلما ازداد سمناً زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولاً، فتجده هنيئاً رخصاً يذوب في الفم قبل أن يلاك مضغاً، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاماً.

وما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة، وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه، والخبر عنه يضيق عن الخبر له. والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوق بلدته الحرام، وتمنى هذه المشاهد العظام والمناسك الكرام، بعزته وقدرته.

وهذه الفواكه تجلب إليها من الطائف ـ وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة ـ ومن قرى حولها. وأقرب هذه المواضع يعرف با. . . هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلاً، وهو من بطن الطائف، ويحتوي على قرى كثيرة، ومن بطن مر، وهو على مسيرة يوم أو أقل، ومن نخلة وهي على مثل هذه المسافة، ومن أودية بقرب من البلد ـ كعين سليمان وسواها ـ قد جلب الله إليها من المغاربة ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات، وذلك بفضل الله عز وجل، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين.

ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله، وأجرينا الحديث باستطابته ـ ولا سيما لكوننا لم نعهده ـ الرطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره يجنى ويؤكل، وهو في نهاية من الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به، وإبانه عندهم عظيم، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، ثم بعد ذلك، عند تناهي نضجه، يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً، ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع.

ومن صنع الله الجميل لنا، وفضله العميم علينا، أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة، فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين، ممن قدم عهده

فيها وطال مقامه بها، يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرَّابة المتلصصين فيها على الخاج، المختلسين ما بأيديهم، والذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين، إلا اختلس من يديه أو من وسطه، بحيل عجيبة ولطافة غريبة، فما منهم إلا أخذ يد القميص فكفى الله في هذا العام شرهم إلا القليل، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم، فتوقف شرهم، وبطيب هوائها في هذا العام، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها، وانكسار حدة سمومها. وكنا نبيت في سطح الموضع الذي كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه، وذلك أمر مستغرب بمكة.

وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام، ولين سعرها، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني ـ وهي أوبتان من كيل مصر وجهاتها، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي ـ وهذا السعر في بلد لا ضيعة فيه، ولا قوام معيشة لأهله إلا بالميرة المجلوبة إليه، سعر لاخفاء بيمنه وبركته، على كثرة المجاورين فيها في هذا العام، وانجلاب الناس إليها وترادفهم الذين لهم بها سنون طائلة، أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط، ولا سمع بمثله فيها، والله يجعله جمعاً مرحوماً معصوماً بمنه.

وما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها في هذه السنة، وتمييزها عما سلف من السنين، حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها. وهذا الماء المبارك في أمره عجب، وذلك أنك تشربه عن خروجه من قراراته، فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية، وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف، وهو لما شرب له، كما قال ﷺ، أروى الله منه كل ظاميء إليه بعزته وكرمه.

ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك، أن الإنسان ربما وجد مس الأعياء وفتور الأعضاء، إما من كثرة الطواف أو من عسرة يعتمرها على قدميه، أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن، فيصب من ذلك الماء على بدنه، فيجد الراحة والنشاط لحينه، ويذهب عنه ما كان أصابه.

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلال ليلة الأربعاء ـ وهو الحادي والعشرون من شهر شتنبر العجمي ـ ونحن بالحرم المقدس، زاده الله تعظيماً وتشريفاً. وفي صبيحة الليلة المذكورة، وافى الأمير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة المذكورة في الشهر الأول، وعلى ذلك الرسم بعينه، والزمزمي المغرد بثنائه والدعاء له فوق قبة زمزم يرفع عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الأمير، والقراء أمامه، إلى أن فرغ من طوافه، وأخذ في طريق انصرافه.

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنيء بعضهم بعضاً، ويتغافرون، ويدعو بعهم لبعض كفعلهم في الأعياد، هكذا دائماً. وتلك طريقة من الخير واقعة في النفوس، تجدد الإخلاص، وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً، وبركة ما يتهادونه من الدعاء. والجماعة رحمة، ودعاؤهم من الله بمكان.

ولهذه البلدة المباركة حمّامان: أحدهما ينسب للفقيه الميانشي أحد الأشياخ المحلقين بالحرم المكرم، والثاني ـ وهو الأكبر ـ ينسب لجمال الدين. وكان هذا الرجل، كصفته جمال الدين، له رحمة الله بمكة والمدينة ـ شرفهما الله ـ من الآثار الكريمة، والصنائع الحميدة، ما لم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان، ولا أكابر الخلفاء فضلاً عن الوزراء.

وكان ـ رحمه الله ـ وزير صاحب الموصل، تمادى على هذه المقاصد السنية، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، أكثر من خمس عشرة سنة، لم يزل فيها باذلاً أموالاً لا تحصى في بناء رباع بمكة، مسبلة في طريق الخير والبر مؤبدة محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر، إلى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين.

وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات، وقاطع عليه العرب بني شعبة، سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء، بوظيفة من المال كبيرة، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج. فلما توفي الرجل ـ رحمة الله عليه ـ عادوا

إلى عادتهم الذميمة من قطعه. ومن مفاخره ومناقبه أيضاً، أنه جعل مدينة الرسول، ﷺ، تحت سورين عتيقين، أنفق فيهما أموالاً لا تحصى كثرة.

ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه، أنه جدد أبواب الحرم كلها، وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة ـ وهو الذي فيها الآن حسبما تقدم وصفه ـ وجلَّل العتبة المباركة بلوح ذهب إبريز ـ وقد تقدم ذكره أيضاً ـ فأخذ الباب القديم، وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه. فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك، ويحج به ميتاً.

فسيق إلى عرفات، ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت، فلما أفاض الناس أفيض به، وقضيت له المناسك كلها، وطيف به طواف الإفاضة ـ وكان الرجل رحمه الله لم يحج في حياته ـ ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ ـ وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره ـ وكاد أشرافها يحملونه رؤوسهم.

وبنيت له روضة بإزاء روضة المصطفى ﷺ، وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأبيح له ذلك ـ على شدة الضنانة بمثله ـ لسابق أفعاله الكريمة، ودفن في تلك الروضة، وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصه بالمواراة في تربة التقديس والتعظيم، والله لا يضيع أجر المحسنين وسنذكر تاريخ وفاته إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت في روضته، إن شاء الله عز وجل، وهو ولي التيسير لا رب غيره.

ولهذا الرجل ـ رحمه الله ـ من الآثار السنية، والمفاخر العلية، التي لم يسبقه إليها أكابر الأجواد وسراة الأمجاد، فيما سلف من الزمان، ما يفوت الإحصاء، ويستغرق الثناء، ويستصحب طول الأيام من الألسنة بالدعاء. وحسبك أنه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق، من العراق إلى الشام إلى الحجاز حسبما نذكره، واستنبط المياه، وبنى الجباب، واختط المنازل في المفازات، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عيَّنها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأديه الأكرية، وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم، وعين لهم ذلك في وجوه تأبدت لهم، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن، فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق.

وكان مدة حياته بالموصل، على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك، قد اتخذ دار كرامة وساعة الفناء فسيحة الأرجاء، يدعو إليها كل يوم الجفلى من الغرباء، فيعمهم شبعاً ورياً، ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل في ظله عيشاً هنيئاً، لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله. . فبقيت آثاره مخلدة، وأخباره بألسنة الذكر مجددة، وقضى حميداً سعيداً. والذكر الجميل للسعداء حياة باقية، ومدة من العمر ثانية، والله الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده، فهو أكرم الكرماء، وأكفل الكفلاء.

ومن الأمور المحظورة بهذا الحرم الشريف ـ زاده الله تعظيماً وتكريماً ـ أن النفقة فيه ممنوعة، لا يجد المتأجر من ذوي اليسار إليها سبيلاً، في تجديد بناء، أو إقامة حطيم، أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك. ولو كان الأمر مباحاً في ذلك، لجعل الراغبون في نفقات البر، من أهل الجدة، حيطانه عسجداً وترابه عنبراً، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك.

فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره، أو إقامة رسم كريم من رسومه، أخذ إذن الخليفة في ذلك، فإن كان مما ينقش عليه أو يرسم فيه، طرز باسم الخليفة ونفوذ أمره بعمله، ولم يذكر اسم المتولي لذلك. ولا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد، ربما يوازي قدر المنفوق فيه، فتتضاعف المؤنة على صاحبه، وحينئذ يصل إلى غرضه من ذلك.

ومن أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم، دوى الملك والثراء، أنه وصل إلى الحرم الكريم، مدة جد هذا الأمير مكثر، فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها، فاجتمع بالأمير وقال: أريد أن أتأنق في بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته، وأبلغ في ذلك الغاية الممكنة، وأنفق فيه من صميم مالي، ولك علي في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك، فإذا استوفى البناء التمام، وانتهت النفقة منتهاها، وتحصلت محصاة، بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لي ذلك.

فاهتز الأمير طمعاً، وعلم أن النفقة في ذلك تنتهي إلى آلاف من الدنانير على الصفة التي وصفها له، فأباح له ذلك، وألزمه مقيداً يحصي قليل الانفاق وكثيره. وشرع الرجل في بنائه، واحتفل، واستفرغ الوسع، وتأنق وبذل

المجهود - فِعلَ من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضاً حسناً - والمقيد يسود طواميره بالتقييد، والأمير يتطلع إلى ما لديه، ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه، إلى أن فرغ البناء على الصفة التي تقدم ذكرها أولاً عند ذكر بئر زمزم وقبته.

فلما لم يبق إلا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب، ويستقضي منه العدد المجتمع فيها، خلا منه المكان وأصبح في خبر كان، وركب الليل جملاً، وأصبح الأمير يقلب كفيه، ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث في بناء وضع في حرم الله تعالى حادثاً يحيله، أو نقضاً يزيله. وفاز الرجل بثوابه، وتكفل الله به في انقلابه، وتحسين مآبه **﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾**. وبقي خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجباً ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك.

شهر رجب الفرد عرَّفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس، الموفى عشرين لشهر أكتوبر، بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والأشراف أهل مكة، ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقعان وجبل أبي قبيس، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضي، وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد.

وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة، وهو أكبر أعيادهم، ولم يزالوا على ذلك قديماً وحديثاً، يتوارثه خلف عن سلف متصلاً ميراث ذلك إلى الجاهلية، لأنهم كانوا يسمونه منصل الأسنة، وهو أحد الأشهر الحرام، وكانوا يحرمون القتال فيه، وهو شهر الله الأصم كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ.

والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العَرفية، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله، ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل، فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجباً، شاهدنا من ذلك أمراً يعجز الوصف عنه. والمقصود منه الليلة التي يستهلِ فيها الهلال مع صبيحتها، ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار.

وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء ـ وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال ـ قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل، مكسوة بأنواع كساء الحرير، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة، بحسب سعة أحوال أربابها ووقرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره.

وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض. ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر، فإن أذيال ستره كانت تسحب على الأرض انسحاباً، وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده، إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزاً عن الإحصاء، فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق.

ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها، ومن المجاورين. وكنا في جملة من خرج ـ ابتغاء بركة الليلة العظيمة ـ فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام، وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج، والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله، والشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة.

فلما قضينا العمرة وطفنا، وجئنا للسعي بين الصفا والمروة ـ وقد مضى هدء من الليل ـ أبصرناه كله سرجاً ونيراناً، وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن، فكنا لا نتخلص إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبل، لكثرة الزحام، واصطكاك الهوادج بعضها على بعض.

فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجباً يذكره مرأى الحشر يوم القيامة، لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين، داعين إلى الله عز وجل ضارعين، والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها، حتى سكت المسامع، وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع، وذابت القلوب الخواشع. وفي تلك الليلة مليء المسجد الحرام كله سرجاً، فتلألأ نوراً، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير، أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم.

فلما كانت صبيحة ليلة الخميس، خرج إلى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله، انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة، شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة، يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجباً، فكيف وهم من بلد واحد. وهذا أدل الدلائل على بركة البلد.

فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب: فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجالة يتواتون ويتثافقون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيوف، والمدافعة بالصحف التي يستجنون بها، وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب. وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء، ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم، وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم، وهم في زحام لا يمكن فيه المجال، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء، فيتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم.

إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، وأبناؤه أمامه وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامه، والطبول والدبادب بين يديه، والسكينة نقيض عليه، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين.

فلما انتهى إلى الميقات وقضى غرضه، أخذ في الرجوع، وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول، وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجباً صهباً لم ير أجمل منظراً منها، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الأمير، رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه، إلى أن وصل المسجد الحرام، فطاف بالكعبة والقراء أمامه، والمؤذن الزمزمي يغرد في سطح قبة زمزم رافعاً عقيرته لتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة.

فلما فرغ الطواف صلى عند الملتزم، ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه ـ وقد أخرج له من الكعبة، ووضع في قبته الخشبية التي يصلى خلفها ـ فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام، فاستلمه وتمسح به، ثم أعيدت القبة عليه، وأخذ في الخروج على باب الصفا إلى المسعى، وانجفل بين يديه، فسعى راكباً والقواد مطيفون به، والرجالة الحرابة أمامه. فلما فرغ من السعي

استلت السيوف أمامه، وأحدقت الأشياع به، وتوجه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحوفاً به، وبقي المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات.

فلما كان اليوم الثاني ـ وهو يوم الجمعة ـ كان طريق العمرة في العمارة قريباً من أمسه، راكبين وماشين رجالاً ونساء، والنساء الماشيات المتأجرات كثير يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة، تقبل الله من جميعهم بمنه. وفي أثناء ذلك يلاقي الرجال بعضهم بعضاً، فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم، والنساء كذلك، والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد.

وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يعبون وله يحتفلون، وفي المباهاة فيه يتنافسون، وله يعظمون، وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم، يقدمون النظر في ذلك والاستعداد له بأشهر.

عادات أهل اليمن في مكة

ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه، اعتناء كريم منه سبحانه بحرمه الأمين، أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو ـ وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة، كأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرني به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبي الصيف، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم، وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها ـ يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام، فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة، كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل واالزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة، ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه: يتقوتون ويدخرون، وترخص الأسعار ونعم المرافق، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش.

ومن العجب في أمر هؤلاء الماثرين، أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشِمَل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك، مع الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب، ويبايعوهم به ويشارونهم.

ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب، ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم، وبوصولهم بها تخضب بلادهم، وتقع البركة في أموالهم، فمتى قرب الوقت، ووقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج، اجتمع نساؤهم فأخرجنهم، وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين.

وبلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة، كثيرة التين والعنب، واسعة المحرث، وافرة الغلات. وقد اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً أن البركة كلها في هذه الميرة التي يجلبونها، فهم من ذلك في تجارة رابحة مع الله عز وجل.

والقوم عرب صرحاء فصحاء، جفاة أصحاء، لم تغذهم الرقة الحضرية، ولا هذبتهم السير المدنية، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية. فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها، وانكبابهم عليها. وفي أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلب، وتتفجر لها الأعين الجوامد فتصوب، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، متلقنين لها من ألسنتهم.

على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف، ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر، وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام، فتراهم في محاولة دخولهم يتسلسلون، كأنهم بعض ببعض مرتبطون، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك، والسلاسل منهم يتبع بعضه بعضاً، وربما انقضت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك.

وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم، فيسجدون دون ركوع، وينقرون بالسجود نقراً، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلاً، وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروع، ثم يسلمون، أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد. وربما تكلموا في أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه، وصاح به ووصاه بما شاء، ثم عاد إلى سجوده، إلى غير ذلك من

أحوالهم الغريبة، ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها.

وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة، لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم في أسفارهم، فمتى رحلوا إلى الزيارة هاب أعراب الطريق، الممسكون للحاج، مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، وخلوا لهم عن الطريق، ويصحبهم الحجاج الزائرون، فيحمدون صحبتهم. وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح.

وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم، وأثنى عليهم خيراً، وقال: «علمُوهم الصلاة يعلموكم الدعاء»، وكفى بأن دخلوا في عموم قوله ﷺ «الإيمان يمان» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في اليمن وأهله. وذكر أن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، كان يحترم وقت طوافهم، ويتحرى الدخول في جملتهم تبركاً بأدعيتهم، فشأنهم عجيب كله.

وشاهدنا منهم صبياً في الحجر، قد جلس إلى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الأخلاص، فكان يقول له: قل هو الله أحد، فيقول الصبي: الله أحد، فيعيد عليه المعلم، فيقول له: ألم تأمرني بأن أقول هو الله أحد؟ قد قلت، فكابد في تلقينه مشقة، وبعد لأي ما علقت بلسانه.

وكان يقول له: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، فيقول الصبي: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله، فيعيد عليه المعلم، ويقول له: لا تقل والحمد لله إنما قل الحمد لله، فيقول الصبي: إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال، وإذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله. فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم، وأما فصاحتهم فبديعة جداً، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس، والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه.

والعمرة في هذا الشهر كله متصلة ليلاً ونهاراً، رجالاً ونساءً، لكن المجتمع كله إنما كان في الليلة الأولى، وهي ليلة الموسم عندهم. والبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك، فإذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة، فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له.

عادات أهل مكة في العمرة

وفي يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور، شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريباً من المشهد الأول المذكور في أوله، فكان لا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها. وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها، ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز، وكذلك السابع والعشرون منه.

وفي عشيِّ يوم الخميس المذكور كنا جلوساً بالحجر المكرم، فما راعنا إلا الأمير مكثر طالعاً محرماً، قد وصل من ميقات العمرة تبركاً بذلك اليوم، وجريا فيه على الرسم، وأبناؤه وراءه محرمين، وقد حف به بعض خاصته، وبادر المؤذن الزمزمي للحين على سطح قبة زمزم داعياً على عادته، متناوباً في ذلك مع أخيه صغيره، وحانت صلاة العشاء مع فراغ الأمير من طوافه، فصلى خلف الإمام الشافعي، وخرج إلى المسعي المبارك.

وفي يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت قافلة كبيرة من الحاج في نحو أربعمائة جمل مع الشريف الداودي، إلى زيارة الرسول ﷺ. وفي جمادى الثانية قبله كانت أيضاً زيارة أخرى لبعض الحجاج في قافلة أصغر من هذه المذكورة، وبقيت الزيارة الشوالية، والتي مع الحاج العراقي، أثر الوقفة إن شاء الله عز وجل. وفي التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة في كنف السلامة، والحمد لله.

وفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه ـ أعني من رجب ـ ظهر لأهل مكة أيضاً احتفال عظيم في الخروج إلى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول، فانجفل الجميع إليها تلك الليلة رجالاً ونساءً على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر، تبركاً بفضل هذه الليلة، لأنها من الليالي الشهيرة الفضل، فكانت مع صبيحتها عجباً في الاحتفال وحسن المنظر، جعل الله ذلك كله خالصاً لوجهه الكريم. وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها، بمقدار غلوة، وهي على مقربة من المسجد المنسوب لعلي عليه السلام.

والأصل في هذه العمرة الأكمة عندهم أن عبد الله بن الزبير، رضي الله

عنهما، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة، خرج ماشياً حافياً معتمراً وأهل مكة معه فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها ـ وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب ـ وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية إلى المعلى، التي كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه، وعلى تلك الأكمة بعينها.

وكان يوم عبد الله، رضي الله عنه، مذكوراً مشهوراً، لأنه أهدى فيه كذا وكذا بدنة عدداً لم تتحصل صحته فكنت أثبته، لكنه بالجملة كثير. ولم يبق من أشراف مكة وذوي الاستطاعة فيها إلا من أهدى، وأقام أهلها أياماً يطعمون ويطعمون ويتنعمون وينعمون، شكراً لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير في بناء بيته الحرام، على الصفة التي كان عليها مدة الخليل إبراهيم ﷺ. فنقضها الحَجَّاج ـ لعنه الله ـ وأعادها على ما كانت عليه مدة قريش، لأنهم كانوا اقتصروا في بنائه عن قواعد إبراهيم ﷺ، وأبقى نبينا محمد ﷺ ذلك على حاله، لحدثان عهدهم بالكفر، حسب ما ثبت في رواية رضي الله عنها في «موطأ» مالك بن أنس رضي الله عنه.

وفي اليوم التاسع والعشرين منه ـ وهو يوم الخميس ـ أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم. فلما وصل الشيبيون لفتح البيت الكريم على العادة، أسرعوا في الخروج منه، وأفرجوا للنساء عنه، وأفرج الناس لهنّ عن الطواف وعن الحجر، ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال.

وتبادر النساء إلى الصعود حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم، وتسلسل النساء بعضهن ببعض، وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة، وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو اليمنيين، مدة مقامهم بمكة، وصعودهم يوم فتح بيت المقدس، وأشبهت الحالُ الحالَ، وتمادين على ذلك صدراً من النهار، وانفسحن في الطواف والحجر، وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان، وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر، ويومهن الأزهر الأشهر، نفعهن الله به، وجعله خالصاً لكريم وجهه.

وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات، يرين البيت الكريم ولا يلجنه، ويلحظن الحجر المبارك، ولا يستلمنه، فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير المستشعر، فليس لهن سوى الطواف على البعد. وهذا اليوم الذي هو من عام إلى عام فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف الأعياد، ويكثرن له من التأهب والاستعداد، والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه.

وفي اليوم الثاني منه بكّر الشيبيون إلى غسله بماء زمزم المبارك، بسبب أن كثيراً من النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع معهن، فيتحرى غسله تكريماً وتنزيهاً، وإزالة لما يحيك في النفوس من هواجس الظنون، فيمن ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة نجس في ذلك الموطن الكريم، والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم.

فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه، تبركاً بغسل أوجههم وأيديهم فيه، وربما جمعوا منه في أوان قد أعدوها لذلك، ولم يراعوا العلة التي غسل لها، وكان منهم من توقف عن ذلك، وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها، ولا يصول العقل في ذلك.

وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام، وماج في جنبات أركانه الكرام، ثم بإزاء الملتزم والركن الأسود المستلم، أليس جديراً بأن تتلقاه الأفواه فضلاً عن الأيدي، وتغمس فيه الوجوه فضلاً عن الأقدام؟ وحاشا لله أن تعرض في ذلك علة تمنع منه، أو شبهة من شبهات الظنون تدفع عنه، والنيات عند الله تعالى مقبولة، والمثابرة على تعظيم حرماته برضاه موصوله، وهو المجازي على الضمائر وخفيات السرائر، لا إله سواه.

شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر نوفمبر. وفي صبيحته بكّر الأمير مكثر إلى الطواف، على العادة في ذلك رأس كل شهر، مع أخيه وبنيه، ومن حري الرسم باستصحابه من القواد والأشياع والأتباع، وعلى الأسلوب المتقدم الذكر، والزمزمي يصرخ في مراقبته على عادته، متناوباً مع أخيه صغيره.

وفي سحر يوم الخميس الثالث عشر منه ـ وهو أول يوم من دجنبر ـ بعد طلوع الفجر كسف القمر، وبدأ الكسوف والناس في صلاة الصبح في الحرم الشريف، وغاب مكسوفاً، وانتهى الكسوف إلى ثلثيه، والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته.

مياه زمزم

وفي يوم الجمعة، الثاني من ذلك اليوم أصبح بالحرم أمر عجيب، وذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا وصبحه، واجتمعوا كلهم في قبة زمزم، وينادون بلسان واحد. هللوا وكبروا يا عباد الله، فيهلل الناس ويكبرون، وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادي معهم بندائهم، والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة، لأنهم يزعمون ـ بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً ـ أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان، وكانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل أنه رؤي ليلة الجمعة في جهة اليمن.

فبكر الناس إلى القبة، وكان فيها من الإزدحام ما لم يعهد مثله، ومقصد الناس في ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذي قد ظهر فيضه، والسقاة فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤوس الناس الماء بالدلاء قذفا: فمنهم من يصيبه في وجهه، ومنهم من يصيبه في رأسه إلى غير ذلك، وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم.

والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون، والنساء من جهة أخرى يساجنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء، والصبيان يصيحون بالتهليل والتكبير. فكان مرأى هائلاً مسموعاً رائعاً، لم يتخلص للطائفين بسُنَّة الطواف، ولا للمصلين صلاة، لعلو تلك الأصوات، واشتغال الأسماع والأذهان بها.

ودخل إلى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم، فكن من لزِّ الزحام عنتا ومشقة، فسمع الناس يقولون: زاد الماء سبع أذرع، فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من ذوي السبال البيض، فيسأله عن ذلك فيقول وأدمعه تسيل: نعم زاد الماء سبع أذرع لا شك في ذلك، فيقول: أعن خبرة وحقيقة؟ فيقول نعم. ومن العجيب أن كان منهم من قال: أنه بكر سحر يوم الجمعة المذكور، فألفى الماء قد قارب التنور بنحو القامة، فيا عجباً لهذا الاختراع الكاذب! نعوذ بالله من الفتنة.

وكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها إلى ذلك، واستمرارها من سوالف الأزمنة عند عوام أهل مكة، فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة إلى أن ضرب في صفح الماء وانتهى الحبل إلى حافة التنور، عقد فيه عقداً يصح عندنا القياس به في ذلك.

فلما كان في صبيحتها، وتنادى الناس بالزيادة الظاهرة، خلص أحدنا في ذلك الزحام على صعوبة، ومعه من استصحب الدلو وأدلاه، فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد، بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت، فألفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم، فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه، فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من البركة، ووضع فيه من المنفعة.

وفي صبيحة يوم السبت، الخامس عشر منه، تتبعنا هذا القياس استراء لصحة الحال، فوجدناه على ما كان عليه. ولو أن لافظاً يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد لصب في البئر صبا، أو لداسته الأقدام حتى تذيبه. نعوذ بالله من غلبات العوام واعتدائها، وركوبها جوامح أهوائها.

وهذا الليلة المباركة ـ أعني ليلة النصف من شعبان عند أهل مكة ـ معظمة للأثر الكريم الوارد فيها، فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعة، فينقسمون في ذلك أقساماً مباركة.

فشاهدنا ليلة السبت ـ التي هي ليلة النصف حقيقة ـ احتفالاً عظيماً في الحرم المقدس أثر صلاة العتمة، جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات تروايح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب وبـ قُل هو الله أحد، عشر مرات في كل ركعة، إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة.

قد قدمت كل جماعة إماماً، وبسطت الحصر، وأوقدت الشمع، وأشعلت المشاعل، وأسرجت المصابيح، ومصباح السماء الأزهر الأقمر قد أفاض نوره على الأرض وبسط شعاعه، فتلاقت الأنوار في ذلك الحرم الشريف الذي هو نور بذاته، فيا لك مرأى لا يتخيله المتخيل، ولا يتوهمه المتوهم.

فأقام الناس تلك الليلة على أقسام: فطائفة التزمت تلك التراويح مع

الجماعة ـ وكانت سبع جماعات أو ثماني ـ وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد، وطائفة خرجت للاعتمار، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله، أغلبها المالكية. فكانت من الليالي الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر القربات ومحاسنها، نفع الله بها، ولا أخلى من بركتها وفضلها، وأوصل إلى هذه المثابة المقدسة كل شيق إليها بمنه.

وفي تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان منا أمراً عجباً، هو من غرائب الأحاديث المأثورات في رقة النفوس، وذلك أنه أصابه النوم عند الثلث الباقي من الليل، فأوى إلى المصطبة التي تحف بها قبة زمزم، مما يقابل الحجر الأسود وباب البيت، فاستلقى فيها لينام، فإذا بإنسان من العجم قد جلس على المصطبة بإزائه مما يلي رأسه، فجعل يقرأ بتشويق وترقيق، ويتبع ذلك بزفير وشهيق، أحسن قراءة وأوقعها في النفوس، وأشدها تحريكاً للساكن، فامتنع المذكور من المنام استمتاعاً بحسن ذلك المسموع، وما فيه من التشويق والتشخيع، إلى أن قطع القراءة وجعل يقول:

إن كان سوء الفعال أبعدني فحسن ظني إليك قربني

ويردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد، وينشق عليه الفؤاد، ومضى في ترديد ذلك البيت ـ ودموعه تكف، وصوته ترق وتضعف ـ إلى أن وقع في نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيغشى عليه، فما كان بين اعتراض هذا الخاطر في نفسه، وبين وقوع الرجل مغشياً عليه من المصطبة إلى الأرض إلا كلا ولا، وبقي ملقى كأنه لقي لا حراك به.

فقام ابن حسان مذعوراً لهول ما عاينه، متردداً في حياة الرجل أو موته، لشدة تلك الوجه والموضع من الأرض بائن الارتفاع، وقام أحد من كان بإزائه نائماً، وأقاما متحيرين، ولم تقدما على تحريك الرجل ولا على الدنو منه. إلى أن اجتازت امرأة أعجمية وقالت: هكذا تتركون هذا الرجل على مثل هذا الحال! وبادرت إلى شيء من ماء زمزم فنضحت به وجهه، ودنا المذكوران منه وأقاماه، فعندما أبصرهما زوى وجهه للحين عنهما، مخافة أن تثبت له صفة في أعينهما، وقام من فوره آخذاً إلى جهة باب بني شيبة.

وبقيا متعجبين مما شاهداه، وعض ابن حسان بنان الأسف على ما فاته

من بركة دعائه، إذ لم يمكنه الحال استدعاءه منه، وعلى أنه لم تثبت له صورة في نفسه، فكان يتبرك به متى لقيه، ومقامات هؤلاء الأعاجم في رقة الأنفس وتأثرها، وسرعة انفعالها، وشدة مجاهداتها في العبادات، وطول مثابرتها على أفعال البر، وظهور بركاتها، مقامات عجيبة شريفة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وفي سحر يوم الخميس، الثالث عشر من الشهر المذكور، كسف القمر، وانتهى الكسوف منه إلى مقدار ثلثيه، وغاب مكسوفاً عند طلوع الشمس، والله يلهمنا الاعتبار بآياته.

شهر رمضان المعظم عرَّفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر ـ عرفنا الله فضله وحقه، ورزقنا القبول فيه ـ وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح، لكن أمضى الأمير ذلك، ووقع الإيذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الأحد المذكور، لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن إليهم، لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر، والله أعلم بذلك.

إحتفال الفرق الدينية في المسجد الحرام

ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك، وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل، وغير ذلك من الآلات، حتى تلألأ الحرم نوراً، وسطع ضياء، وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقاً: فالشافعية، فوق كل فرقة منها، قد نصبت إماماً لها في ناحية من نواحي المسجد، والحنبلية كذلك، والحنفية كذلك والزيدية.

وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، وهي في هذا العام أحفل جمعاً، وأكثر شمعاً، لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعاً كثيراً، من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطاز، وقد حفت بهما شمع دونهما صُغار وكبار، فجاءت جهة المالكية تروق حسناً، وترتمي الأبصار نوراً.

وكاد لا يبقى في المسجد زاوية، ولا ناحية، إلا وفيها قارىء يصلي

بجماعة خلفه، فيرتج المسجد لأصوات القَرَّاءة من كل ناحية، فتعاين الأبصار، وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعاً تنخلع له النفوس خشية ورقة.

ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة في الحجر، ولم يحضر التراويح، ورأى أن ذلك أفضل ما يغتنم، وأشرف عمل يلتزم، وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم.

والشافعي في التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً، وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات، ويدخل الطواف مع جماعة، فإذا فرغ من الأسبوع وركع، عاد لإقامة تراويح أخرى، وضرب بالفرقعة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربة يسمعها المسجد لعلو صوتها، كأنها إيذان بالعود إلى الصلاة، فإذا فرغوا من تسليمتين، عادوا لطواف أسبوع، فإذا أكملوه ضربت الفرقعة، وعادوا لصلاة تسليمتين، ثم عادوا للطواف، هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات، فيكمل لهم عشرون ركعة، ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً.

والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة: أولهم إمام الفريضة، وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن علي الفلكي القرطبي، وقراءته ترق الجمادات خشوعاً.

وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك، وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات، عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفرغ من أذان العشاء الآخرة، وهي لا محالة من حملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم، قدسه الله.

والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد، بسبب قربها من دار زبيدة فيقوم في وقت السحور فيها داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور، ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه، وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع، وفي طرفيه بكرتان صغيرتان ترفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير، فإذا قرب تبيين خيطي الفجر، ووقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة،

حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة، وبدأ بالأذان، وثؤب المؤذنون من كل ناحية بالأذان. وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير، من يبعد مسكنه من المسجد، يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع.

وصول سيف الإسلام طغتكين الأيوبي

وفي ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي طاف الأمير مكثر بالبيت مودعاً، وخرج للقاء الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين، وقد تقدم الخبر بوروده من مصر منذ مدة، ثم تواتر إلى أن صح وصوله إلى الينبوع، وأنه عرج إلى المدينة لزيارة الرسول ﷺ، وتقدمت أثقاله إلى الصفراء، والمتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها، وفتنة حدثت من أمرائها، لكن وقع من نفوس المكيين منه ابحاس، خيفة واستشعار خشية، فخرج هذا الأمير المذكور متلقياً مسلماً، وفي الحقيقة مستسلماً، والله تعالى يعرف المسلمين خيراً.

وفي ضحوة يوم الأربعاء، الثالث من الشهر المبارك المذكور، كنا جلوساً بالحجر المكرم، فسمعنا دبادب الأمير مكثر وأصوات نساء مكة تولولن عليه. فبينا نحن كذلك دخل منصرفاً من لقاء الأمير سيف الإسلام المذكور، وطائفاً بالبيت المكرم طواف التسليم، والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته، وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام الزاهد وضرب أبنيته فيه، ومقدمته من العسكر قد وصلت إلى الحرم، وزاحمت الأمير مكثراً في الطواف.

فبينا الناس ينظرون إليهم إذ سمعوا ضوضاء عظيمة، وزعقات هائلة، فما راعهم إلا الأمير سيف الإسلام داخلاً من باب بني شيبة، ولمعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه، والقاضي عن يمينه، وزعيم الشيبيين عن يساره، والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان، والمؤذن الزمزمي في مرقبته رافعاً عقيرته بالدعاء له والثناء عليه، وأصوات الناس تعلو على صوته، والهول قد عظم مرأى ومستمعاً.

فلحين دنو الأمير من البيت المعظم أُغمدت السيوف، وتضاءلت النفوس، وخلع ملابس العزة وذل الأعناق، وخضعت الرقاب، وطاشت الألباب مهابة وتعظيماً لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار، مؤتي الملك من يشاء، ونازع الملك ممن يشاء، سبحانه جلّت قدرته وعز سلطانه.

ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفَراش على المصباح، وقد نكس أذقانهم الخضوع، وبلت سبالهم الدموع، وطاف القاضي وزعيم الشيبيين بسيف الإسلام والأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام، فأسرع في الفراغ من الطواف، وبادر إلى منزله.

وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه صلى خلف المقام، ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها، ثم خرج على باب الصفا إلى السعي، فابتدأه ماشياً على قدميه تواضعاً وتذللاً لمن يجب التواضع له، والسيوف مصلوتة أمامه، وقد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ما صنعوا أيضاً في الطواف، فسعى على قدميه طريقين من الصفا إلى المروة، ومنها إلى الصفا، وهرول بين الميلين الأخضرين، ثم قيده الإعياء فركب وأكمل السعي راكباً، وقد حشر الناس ضحى، يعني وقتاً.

ثم عاد هذا الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الإرهاب والهيبة، وهو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلتة، وقد بادر الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه ـ ولم يكن يوم فتحه ـ وضم الكرسي الذي يصعد عليه، فرقى الأمير فيه، وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب فإذا المفتاح قد سقط من كمه في ذلك الزحام، فوقف وقفة دهش مذعور، ووقف الأمير على الأدراج، فيسر الله للحين في وجود المفتاح، ففتح الباب الكريم، ودخل الأمير وحده مع الشيبي وأغلق الباب، وبقي وجوه الأغزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسي، فبعد لأي ما فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا.

وتمادى مقام سيف الإسلام في البيت الكريم مدة طويلة، ثم خرج وانفتح الباب للكافة منهم، فيا له من إزدحام وتراكم وانتظام، حتى صاروا كالعقد المستطيل، وقد اتصلوا وتسلسلوا، فكان يومهم أشبه شيء بأيام السرو في دخولهم البيت ـ حسبما تقدم وصفه ـ وركب الأمير سيف الإسلام، وخرج إلى مضرب أبنيته بالموضع المذكور. وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة

المنظر، العجيبة المشهد، الغريبة الشأن، فسبحان من لا يقتضي ملكه، ولا يبيد سلطانه، لا إله سواه.

وصحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر وسواها، اغتناماً لطريق البر والأمن، فوصلوا في عافية وسلامة والحمد لله.

وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضاً بالحجر المكرم، فإذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الأذان، وارتجت لها نواحي الحرم الشريف. فبينما نحن نتطلع لاستعلام خبرها، طلع علينا الأمير مكثر وغاشيته الأقربون حوله، وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون قد علا كورها على رأسه، كأنها سحابة مركومة، وهي مصفحة بالذهب، وتحت الحلة خلعتان من الديبقي المرسوم البديع الصنعة، خلعها عليه الأمير سيف الإسلام، فوصل لها فرحاً جذلان، والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الإسلام، إشادة بتكرمته وإعلاماً بمأثرة منزلته، فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير، بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه، والله يصلحه ويوفقه بمنه.

وفي يوم الجمعة وصل الأمير سيف الإسلام للصلاة أول الوقت، وفتح البيت المكرم فدخله مع الأمير مكثر، وأقاما به مدة طويلة ثم خرجا، وتزاحم الغز للدخول تزاحما أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسي الذي يصعد عليه فلم يغن عن ذلك شيئاً، وأقاموا على الإزدحام في الصعود بإشالة بعضهم على بعض، وداموا على هذه الحالة إلى أن وصل الخطيب، فخرجوا لاستماع الخطبة، وأغلق الباب، وصلى الأمير سيف الإسلام مع الأمير مكثر في القبة العباسية، فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا، وركب إلى مضرب أبنيته.

وفي يوم الأربعاء العاشر منه، خرج الأمير المذكور بجنوده إلى اليمن، والله يعرف أهلها من المسلمين في مقدمه خيراً بمنه.

احتفالات المكيين في الحرم

وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف في قيامه

وصلاة تراويحه، وكثرة الأئمة فيه. وكل وتر من الليالي العشر الأواخر يختم فيها القرآن. فأولها ليلة إحدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة، وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأشياخ، فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيباً، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله إلى طعام وحلوا قد أعدهما واحتفل فيهما.

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوي اليسار، غلاماً لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالاً بديعاً. وذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة، وأعد إليها شمعاً كثيراً، ووضع في وسط الحرم، مما يلي باب بني شيبة، شبيه المحراب المربع من أعواد مشرجبة، قد أقيم على قوائم أربع، وربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل، وأسرجت في أعلاها مصابيح ومشاعيل، وسمر دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشمع، فاستدار بالمحراب كله، وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه.

وأمعن الاحتفال في هذا كله، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالاً ونساءً، وهو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به، ثم برز من محرابه رافلاً في أفخر ثيابه بهيبة أمامية، وسكينة غلامية، مكحل العينين، مخضوب الكفين إلى الزندين، فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام، فأخذه أحد سدنة تلك الناحية في ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره، فاستوى مبتسماً، وأشار على الحاضرين مسلماً.

وقعد بين يديه قراء، فابتدروا القراءة على لسان واحد، فلما أكملوا عشراً من القرآن قام الخطيب، فصدع بخطبة يحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع، وبين يديه في درجات المنبر نفر يمسكون أتوار الشمع في أيديهم، ويرفعون أصواتهم بيارب يا رب عند كل فصل من فصول الخطبة، يكررون ذلك، والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ثم يعدو لخطبته.

وتمادى فيها متصرفاً في فنون من التذكير، وفي أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق ـ كرمه الله ـ فحسر عن ذراعيه مشيراً إليه، وأردفه بذكر زمزم والمقام، فأشار إليهما بكلتا أصبعيه، ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه، ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء، ثم نزل وانفضَّ ذلك الجمع العظيم.

وقد استظرف ذلك الخطيب واستنبل، وإن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل، والتذكرة إذا خرجت من اللسان لم تتعد مسافة الأذان. ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع ـ كالقاضي وسواه ـ خصوا بطعام حفيل وحلوا، على عادتهم في مثل هذا المجتمع، وكانت لأبي الخطيب في تلك الليلة نفقة واسعة في جميع ما ذكر.

ثم كانت ليلة خمس وعشرين، فكان المختتم فيها الإمام الحنفي، وقد أعد ابناً له لذلك سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور، فكان احتفال الإمام الحنفي لابنه في هذه الليلة عظيماً، أحضر فيها من ثريات الشمع أربعاً مختلفات الصنعة: منها مشجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة، ومنها غير مغصنة، فصففت أمام حطيمه، وتوج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه، وجلل ذلك كله سرجاً ومشاعيل وشمعاً، فاستنار الحطيم كله حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور، وأحضر الشمع في أتوار الصفر، ووضع المحراب العودي المشرجب، فجلل دائره الأعلى كله شمعاً، وأحدق الشمع في الأتوار به، فاكتنفته هالات من النور، ونصب المنبر قبالته مجللاً أيضاً بالكسوة الملونة.

واحتفال الناس لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من الاحتفال الأول، فختم الصبي المذكور، ثم برز من محرابه إلى منبره يسحب أذيال الخفر في أثواب رائقة المنظر، فتسور منبره وأشار بالسلام على الحاضرين وابتدأ خطبته بسكينة ولين ولسان على حالة الحياء مبين، فكأن الحال على طفولتها كانت أوقر من الأولى وأخشع، والموعظة أبلغ والتذكرة أنفع.

وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول. وفي أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة، فيسكت خلال أكمالهم الآية التي انتزعوها من القرآن، ثم يعود إلى خطبته. وبين يديه في درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أتوار

الشمع بأيديهم، ومنهم من يمسك المجمرة يسطع بعَرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى. فعندما يصل إلى فصل من تذكير أو تشخيع، رفعوا أصواتهم بيا رب يا رب، يكررونها ثلاثاً أو أربعاً، وربما جاراهم في النطق بعض الحاضرين إلى أن فرغ من خطبته ونزل. وجرى الإمام أثره على الرسم من الإطعام لمن حضر من أعيان المكان، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة، أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم.

احتفالات ليلة القدر وختم القرآن الكريم

ثم كانت ليلة سبع وعشرين ـ وهي ليلة الجمعة بحساب يوم الأحد ـ فكانت الليلة الغراء، والختمة الزهراء، والهيبة الموفورة الكهلاء، والحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول والرجاء. أي حالة توازي شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم! وأنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم.

ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وأقيمت إزاء حطيم إمام الشافعية خشب عظام بائنة الارتفاع، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضاً، ووصلت بالحطيم المذكور.

ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة، . وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا منها خشباً مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف، لاصقاً بعضها ببعض كظهر الشهيم، نصب عليها الشمع، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقباً متصلاً، وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها.

وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب، ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار وصغار، وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر، قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها في الهواء، وخرقت كلها ثقباً، ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق الصفرية، لا يزيد منها أنبوب من أنبوب في القد، وأوقدت فيها المصابيح، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نوراً.

ووصلت بالحطيم الثاني، الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم، خشب على الصفة المذكورة اتصلت إلى الركن المذكور، وأوقد المشعل الذي في رأس فحل القبة المذكورة، وصففت طرة شباكها شمعاً مما يقابل البيت المكرم.

وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة، محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على الصفة المذكورة، جللت كلها شمعاً، ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم في أتوار تناسبها كبراً، وصفت تلك الأتوار على الكراسي التي يصرفها السدنة مطالع عند الإيقاد، وجلل جدال الحجر المكرم كله شمعاً في أتوار من الصفر، فجاءت كأنها دائرة نور ساطع، وأحدقت بالحرم المشاعيل، وأوقد جميع ما ذكر.

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة، وقد وضعت بيد كل واحد منهم كرة من الخرق المشبعة سليطاً، فوضعوها متقدة في رؤوس الشرفات، وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع، فجعلت كل طائفة تباري صاحبتها في سرعة إيقادها، فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الأبصار، وفي أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيا رب يا رب على لسان واحد، فيرتج الحرم لأصواتهم فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يغشى الأبصار شعاع تلك الأنوار، فلا تقع لمحة طرف إلا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر، فيتوهم المتوهم ـ لهول ما يعانيه من ذلك ـ أن تلك الليلة المباركة نزهت لشرفها عن لباس الظلماء، فزينت بمصابيح السماء. وتقدم القاضي فصلى فريضة العشاء الآخرة، ثم قام وابتدأ بسورة القدر، وكان أئمة الحرم في الليلة قبلها قد انتهوا في القراءة إليها، وتعطل في تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيماً لختمة المقام، وحضروا متبركين بمشاهدتها.

وقد كان المقام المطهر أخرج من موضعه المستحدث في البيت العتيق ـ حسبما تقدم الذكر أولاً فيما سلف من هذا التقييد ـ ووضع في محله الكريم المتخذ مصلى مستوراً بقبته التي يصلي الناس خلفها، فختم القاضي بتسليمتين، وقام خطيباً مستقبل المقام والبيت العتيق، فلم يتمكن سماع الخطبة للإزدحام وضوضاء العوام.

فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة تراويحهم، وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعاً، وأعينهم قد سالت دموعاً، والأنفس قد أشعرت من فضل تلك الليلة المباركة رجاءً مبشراً بمن الله تعالى بالقبول، ومشعراً أنها ولعلها ليلة القدر المشرف ذكرها في التنزيل، والله عز وجل لا يخلي الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها، أنه كريم منان لا إله سواه.

ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولاً، بعد هذه الليلة المذكورة، بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور، تتضمن التذكير والتحذير والتبشير، بحسب اختيار كل واحد منهم، ورسم طوافهم أثر كل تسليمتين باق على حاله، والله ولي القبول من الجميع.

ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه، فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح، ملتزمين رسم الخطبة أثر الختمة، والمشار إليه منهم المالكي، فتقدم بإعداد أعواد بإزاء محرابه، نصبها ستة على هيئة دائرة محراب، مرتفعة عن الأرض بدون القامة، يعترض على كل اثنين منها عود مبسوط، فأدير بالشمع أعلاها، وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك.

وأحدق أيضاً داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط، فكان منظراً مختصراً، ومشهداً عن احتفال المباهاة منزهاً موقراً، رغبة في احتفال الأجر والثواب ومناسبة لموضع هيئة المحراب، نصبت للشمع فيه عرضاً من الأتوار أثافي من الأحجار، فجاءت الحال غريبة في الاختصار، خارجة عن محفل التعاظم والاستكبار، داخلة مدخل التواضع والاستصغار.

واحتفل جميع المالكية للختمة، فتناوبها أئمة التراويح، فقضوا صلاتهم سراعاً عجالاً كاد يلتقي طرفاها خفوفاً واستعجالاً، ثم تقدم أحدهم فعقد حبوته بين تلك الأثافي، وصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبي ابن الإمام الحنفي، فأرسلها معادة إلى الأسماع، ثقيلاً لحنها على الطباع. ثم انفض الجمع وقد جمد في شؤونه الدمع، واختطفت للحين من أثافيه ذلك الشمع، أطلقت عليه أيدي الانتهاب، ولم يكن في الجماعة من يستحي منه أو يهاب، وعند الله تعالى في ذلك الجزاء والثواب، أنه سبحانه الكريم الوهاب.

وانتهت ليالي الشهر ذاهبة عنا بسلام، جعلنا الله ممن طهر فيها من

الآثام، ولا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه في جوار الكعبة البيت الحرام، وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الإسلام، وأوزعنا حمداً يحق هذه النعمة وشكراً، وجعلها للمعاد لنا ذخراً، ووفانا عليها ثواباً من لديه وأجراً يرجى بفضله وكرمه، أنه لا يضيع لديه أيام اتخذ لصيامها ماء زمزم فطراً، أنه الحنان المنان لا رب سواه.

شهر شوال عرَّفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من يناير، يمنّ الله مطلعه، ورزقنا بركته، وهذا الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج المعلومات، وبعده تتصل ثلاثة الأشره الحرم المباركات.

احتفالات عيد الفطر السعيد

وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام ـ زاده الله تكريماً ـ جرى الرسم في إيقاد مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، وأوقدت الصوامع من الأربع جهات من الحرم، وأوقد سطح المسجد الذي في أعلى جبل أبي قبيس، وأقام المؤذن ليلته تلك في أعلى سطح قبة زمزم مهللاً ومكبراً ومسبحاً وحامداً، وأكثر الأئمة تلك الليلة أحياء، وأكثر الناس على مثل تلك الحال بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير. يقبل الله من جميعهم، أنه سميع الدعاء، كفيل بالرجاء، سبحانه لا إله سواه.

فلما كان صبيحتها، وقضى الناس صلاة الفجر، لبس الناس أثواب عيدهم، وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام، لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس إليه، رغبة في شرف البقعة وفضل بركتها، وفضل صلاة الإمام خلف المقام ومن يأتم به.

فأول من بكر الشيبيون، وفتحوا باب الكعبة المقدسة، وأقام زعيمهم جالساً في العتبة المقدسة، وسائر الشيبيين داخل الكعبة، إلى أن أحسوا بوصول الأمير مكثر، فنزلوا إليه وتلقوه بمقربة من باب النبي ﷺ، فانتهى إلى البيت المكرم، وطاف حوله أسبوعاً، والناس قد احتفلوا لعيدهم، والحرم قد

غص بهم، والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له، متناوباً في ذلك مع أخيه.

فلما أكمل الأمير الأسبوع، عمد إلى مصطبه قبة زمزم ـ مما يقابل الركن الأسود ـ فقعد بها، وبنوه عن يمينه ويساره، ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه، وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم، يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت، غابطة لمحلهم منه ومكانهم من حجابته وسدانته، فسبحان من خصهم بالشرف في خدمته. وحضر الأمير من خاصته شعراء أربعة، فأنشدوه واحداً أثر واحد إلى أن فرغوا من إنشادهم.

وفي أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة ـ وكان ضحى من النهار ـ فأقبل القاضي الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين، والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه، وقد صك الحرم صوتها، وهو لابس ثياب سواده، فجاء إلى المقام الكريم، وقام الناس للصلاة، فلما قضوها رقى المنبر ـ وقد ألصق إلى موضعه المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة، حيث الباب الكريم شارعاً ـ فخطب خطبة بليغة، والمؤذنون قعود دونه في أدراج المنبر، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره، إلى أن فرغ من خطبته.

وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء، مسرورين جذلين فرحين بما أتاهم الله من فضله، وبادروا إلى البيت الكريم، فدخلوا بسلام آمنين، مزدحمين عليه فوجاً فوجاً، فكان مشهداً عظيماً وجمعاً بفضل الله تعالى مرحوماً. جعله الله ذخيرة للمعاد، كما جعل ذلك العيد الشريف في العمر أفضل الأعياد بمنه وكرمه، أنه ولي ذلك، والقادر عليه.

زيارة الجبانة ومِنى

وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم، وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض، في زيارة الجبانة بالمعلى، تبركاً باحتساب خطى الصالحين من الصدر الأول وسواه، رضي الله عن جميعهم، وحشرنا في زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم، فالمرء ـ كما قال ﷺ ـ مع من أحب.

وفي يوم السبت التاسع عشر منه، والثالث لفبراير، صعدنا إلى منى

لمشاهدة المناسك المعظمة بها، ولمعاينة، منزل اكترى لنا فيها، إعداداً للمقام بها أيام التشريق إن شاء الله، فألفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحاً: مدينة عظيمة الآثار، واسعة الاختطاط، عتيقة الوضع قد درست إلا منازل يسيرة متخذة للنزول، تحف بجانبي طريق كأنه ميدان انبساطاً وانفساحاً ممتد الطول.

فأول ما يلقى المتوجه إليها عن يساره، وبمقربة منها، مسجد البيعة المباركة، التي كانت أول بيعة في الإسلام عقدها العباس، رضي الله عنه، للنبي ﷺ على الأنصار حسب المشهور من ذلك.

ثم يفضى منه إلى جمرة العقبة، وهي أول منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار إليها، وهي على قارعة الطريق مرتفعة للمتراكم فيها من حصى الجمرات، ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسي، لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالي الأزمنة، لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات، لا إله سواه. وعليها مسجد مبارك، وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التي ذكرناها، فيجعلها الرامي عن يمينه مستقبلاً مكة ـ شرفها الله ـ ويرمي بها سبع حصيات، وذلك يوم النحر أثر طلوع الشمس، ثم ينحر أو يذبح ويحلق ـ والمحلق حولها، والمنحر في كل موضع من منى، لأن منى كلها منحر كما قال ﷺ ـ وقد حل له كل شيء إلى النساء والطيب حتى يطوف طواف الأفاضة.

وبعد هذه الجمرة العقبية موضع الجمرة الوسطى، ولها أيضاً علم منصوب وبينهما قدر الغلوة، ثم بعدها يلقى الجمرة الأولى، ومسافتها منها كمسافة الأخرى. وفي وقت الزوال من ثاني يوم النحر ترمى في الأولى سبع حصيات، وفي الوسطى كذلك، وفي العقبة كذلك، فتلك إحدى وعشرون حصاة. وفي الثالث من يوم النحر، في الوقت بعينه، كذلك على الترتيب المذكور، فتلك اثنتان وأربعون حصاة في اليومين، وسبع رميت في العقبة يوم النحر، وقت طلوع الشمس، كما ذكرناه ـ وهي المحللات للحاج ما حرم عليه سوى النساء والطيب ـ فتلك تكملة تسع وأربعين جمرة.

وفي أثر ذلك ينفصل الحاج إلى مكة من ذلك اليوم، واختصر في هذا الزمان إحدى وعشرون كانت ترمى في اليوم الرابع على الترتيب المذكور، وذلك لاستعجال الحاج خوفاً من العرب الشعبيين، إلى غير ذلك من

محذورات الفتن المغيرات لآثار السنن، فمضى العمل اليوم على تسع وأربعين حصاة، وكانت في القديم سبعين، والله يهب القبول لعباده.

والصادر من عرفات إلى منى أول ما يلقى الجمرة الأولى، ثم الوسطى، ثم جمرة العقبة. وفي يوم النحر تكون جمرة العقبة أولى منفردة بسبع حصيات، حسبما تقدم ذكره، ولا يشترك معها سواها في ذلك اليوم، ثم في اليومين بعده ترجع الآخرة على الترتيب حسبما وصفناه، بحول الله عز وجل. وبعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيراً، ويلقى منحر الذبيح ﷺ، حيث فدى بالذبح العظيم، وعلى الموضع المبارك مسجد مبني، وهو بمقربة من سفح ثبير.

وفي موضع المنحر المذكور، حجر قد ألصق بالجدار المبني، فيه أثر قدم صغيرة يقال أنه أثر قدم الذبيح ﷺ عند تحركه، فَلاَنَ الحجر له بقدرة الله عز وجل إشفاقاً وحناناً، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله، ويفضَى من ذلك إلى مسجد الخيف المبارك، وهو آخر منى في توجهك، أعني من المعمور منها بالبنيان. وأما الآثار القديمة فآخذة إلى أبعد غاية أمام المسجد.

وهذا المسجد المبارك متسع الساحة، كأكبر ما يكون من الجوامع، والصومعة وسط رحبة المسجد، وله في القبلة أربع بلاطات يشملها سقف واحد، وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة، وكفى بما ورد في الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء صلوات الله عليهم.

وبمقربة منه، عن يمين المار في الطريق، حجر كبير مسند إلى سفح الجبل، مرتفع عن الأرض يظل ما تحته، ذكر أن النبي ﷺ قعد تحته مستظلاً، ومس رأسه المكرم فيه، فَلاَنَ له حتى أثر فيه تأثيراً بقدر دور الرأس، فيبادر الناس لوضع رؤوسهم في ذلك الموضع، تبركاً واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدرة الله عز وجل.

فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة، أخذنا في الإنصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله في مباشرتها، ووصلنا إلى مكة قريب الظهر، والحمد لله على ما منّ به.

غار حراء والاستسقاء في الكعبة المشرفة

وفي يوم الأحد بعده، وهو الموفى عشرين لشوال، صعدنا إلى الجبل المقدس حراء، وتبركنا بمشاهدة الغار في أعلاه الذي كان النبي ﷺ يتعبد فيه، وهو أول موضع نزل فيه الوحي عليه ﷺ، ورزقنا شفاعته، وحشرنا في زمرته، وأماتنا على سنته ومحبته، بمنّه وكرمه لا رب سواه.

وفي ضحوة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين منه، وهو السادس من فُبراير، اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة ـ بعد أن ندبهم القاضي إلى ذلك، وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله ـ فاجتمعوا في هذا اليوم الرابع المذكور، وقد أخلصوا النيات لله عز وجل، وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق.

ثم أقبل القاضي بين رايتيه السوداوين، لابساً ثياب البياض، وأخرج مقام الخليل إبراهيم ﷺ وعلى نبينا، ووضع على عتبة باب البيت المكرم، وأخرج مصحف عثمان رضي الله عنه من خزانته، ونشر بإزاء المقام المطهر، فكانت دفته الواحدة عليه، والثانية على الباب الكريم.

ثم نودي في الناس بالصلاة جامعة، فصلى القاضي بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى ركعتين: قرأ في إحداهما سبح اسم ربك الأعلى، وفي الثانية الغاشية، ثم صعد المنبر ـ وقد ألصق إلى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة ـ فخطب خطبة بليغة، والى فيها الاستغفار، ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم، وحضهم على التوبة والإنابة لله عز وجل، حتى نزفت دمعها العيون، واستنفدت ماءها الشؤون، وعلا الضجيج، وارتفع الشهيق والنشيج، وحول رداءه وحول الناس أرديتهم أتباعاً للسنة، ثم انفض الجمع راجين رحمة الله عز وجل، غير قانتين منها، والله يتلافى عباده بلطفه وكرمه.

وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متوالية على الصفة المذكورة، وقد نال الجهد من أهل الحجاز، وأضر بهم القحط، وأهلك مواشيهم الجدب، لم يمطروا في الربيع ولا الخريف ولا الشتاء إلا مطراً طلا غير كاف ولا شاف. والله عز وجل لطيف بعباده، أنه الحنان المنان لا رب سواه.

زيارة جبل ثور

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال، صعدنا إلى جبل ثور لمعاينة الغار المبارك، الذي أوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق رضي الله عنه، حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز ـ وقد تقدم ذكر هذا الغار وصفته أولاً في هذا التقييد ـ وولجناه من الموضع الذي يعسر الولوج منه على البعض من الناس، تبركاً بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك، قدسه الله، لأن مدخل النبي ﷺ كان منه.

وكان لأحد الصاعدين إليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة وفضيحة. وذلك أنه رام لولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر بحيلة، وعاود ذلك مراراً فلم يستطع، حتى استوقف الناس ما عاينوه من ذلك، وبكوا له إشفاقاً، ولجأوا إلى الله عز وجل في الدعاء فلم يغن ذلك شيئاً، وكان فيهم من هو أضخم منه، فيسر الله عليه، وطال تعجب الناس منه واعتبارهم. وأعلمنا بعد انفصالنا في ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل لثلاثة أناس في ذلك اليوم بعينه، عصمنا الله من مواقف الفضيحة في الدنيا والآخرة.

وهذا الجبل صعب المرتقى جداً، يقطع الأنفاس تقطيعاً، لا يكاد يبلغ منتهاه إلا وقد ألقى بالأيدي أعياء وكلالاً، وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال، وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها، والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنّه وكرمه. وطول الغار ثمانية عشر شبراً، وسعته أحد عشر شبراً في الوسط منه، وفي حافتيه ثلثا شبر، وعلى الوسط منه يكون الدخول، وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار أيضاً، لأن له بابين حسبما ذكرناه أولاً.

وفي يوم الجمعة بعده وصل السرو اليمنيون في عدد كثير، مؤملين زيارة قبر الرسول ﷺ، وجلبوا ميرة إلى مكة على عادتهم، فاستبشر الناس بقدومهم استبشاراً كثيراً، حتى أنهم أقاموا عوض نزول المطر. ولطائف الله لسكان حرمه الشريف واسعة، أنه سبحانه لطيف بعباده لا إله سواه.

شهر ذي القعدة عرفنا الله بمنّه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء، بموافقة الرابع عشر من شهر فبرير، بشهادة ثبتت عند القاضي في رؤيته، وأما الأكثر الأغلب من أهل المسجد الحرام فلم

يبصروا شيئاً، وطال ارتقابهم إلى أثر صلاة المغرب، وكان منهم من يتخيله فيشير إليه، فإذا حققه تلاشى عنده نظره وكذب خبره، والله أعلم بصحة ذلك.

مواقع ولادة الرسول وآل البيت

وهذا الشهر المبارك ثاني الأشهر الحرم، وثاني أشهر الحج، أطلع الله هلاله على المسلمين بالأمن والإيمان والمغفرة والرضوان بعزته ورحمته. وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه، دخلنا مولد النبي ﷺ، وهو مسجد حفيل البنيان، وكان داراً لعبد الله بن عبد المطلب أبى النبي ﷺ، وقد تقدم ذكره.

ومولده ﷺ صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار، وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثاً شبر مطوقة بالفضة، فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبراً. ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس، الذي هو مسقط لأكرم مولود على الأرض، وملمس لأطهر سلالة وأشرفها ﷺ، ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم، وبازائه محراب حفيل القرنصة، مرسومة طرته بالذهب، وقد تقدم الوصف لهذا كله.

وهذا الموضع المبارك هو شرقي الكعبة متصل بسفح الجبل، ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبي قبيس، وعلى مقربة منه أيضاً مسجد عليه مكتوب: هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وفيه تربى رسول الله ﷺ، وكان داراً لأبي طالب عم النبي ﷺ وكافله.

ودخلت أيضاً في اليوم المذكور دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها، وفيها قبة الوحي، وفيها أيضاً مولد فاطمة رضي الله عنها، وهو بيت صغير مائل للطول، والمولد شبه صهريج صغير، وفي وسطه حجر أسود، وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها، رضي الله عنهما، لاصق بالجدار، ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين، وعليهما حجران مائلان إلى السود كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين، ومسحنا الخدود في هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد الكرام رضوان الله عليهم.

وفي الدار المكرمة أيضاً مختبأ النبي ﷺ، شبيه القبة، وفيه مقعد في

الأرض عميق شبيه الحفرة داخل في الجدار قليلاً، وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور، قيل أنه كان الحجر الذي كان غطى النبي ﷺ عند اختبائه في الموضع المذكور، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين. وعلى واحد من هذه الموالد المذكورة قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه، فإذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به، ثم أعادها عليه.

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور، نفذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل، وانتهاب منزله، وصرفه عن حجابة البيت الحرام ـ طهره الله ـ وذلك لهنات نسبت إليه لا تليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق «**ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**»، أعاذنا الله من سوء القضاء ونفوذ سهام الدعاء بمنّه.

وفي هذه الأيام السالفة من الشهر المذكور، توالى مجيء السرو اليمنيين في رفاق كثيرة، بالميرة من الطعام وسواه وضروب الأدام والفواكه اليابسة، فأرغدوا البلد... ولولاهم لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر في جهد ومشقة، فهم رحمة لهذا البلد الأمين، ثم توجهوا إلى الزيارة المباركة، إلى التربة المباركة طيبة، مدفن رسول الله ﷺ، ووصلوا في أسرع مدة. قطعوا الطريق من مكة إلى المدينة في يسير أيام، ومن صحبهم الحاج حمد صحبتهم. وفي أثناء مغيبهم وصلت طوائف أخر منهم للحج خاصة، لضيق الوقت عن الزيارة، فأقاموا بمكة، ووصل الزوار منهم، فضاق بهم المتسع.

فتح البيت العتيق والكعبة المشرفة

فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور، فتح البيت العتيق، والعشرين من فتحه من الشيبيين ابن عم الشيبي المعزول ـ هو أمثل طريقة منه على ما يذكر ـ فازدحم السرو للدخول على العادة، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف: يصعدون أفواجاً حتى يغص الباب الكريم بهم، فلا يستطيعون تقدماً ولا تأخراً إلى أن يلجوا على أعظم مشقة، ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم، فينحدر الفوج منهم على المصعد، وفوج آخر صاعده، فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم إلى بعض، فربما حمل المنحدرون في صدور الصاعدين، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين، وتضاغطوا إلى أن

يميلوا فيقع البعض على البعض فيعاين النظارة منهم مرأى هائلاً، فمنهم سليم وغير سليم، وأكثرهم إنما ينحدرون وثباً على الرؤوس والأعناق.

ومن أعجب ما شاهدنا في يوم الاثنين المذكور، أن صعد بعض من الشيبيين، أثناء ذلك الزحام، يرومون الدخول إلى البيت الكريم، فلم يقدروا على التخلص، فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب، ثم إن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط القنبية الممسكة للأستار إلى أن علا الرؤوس والأعناق، فوطئها ودخل البيت، فلم يجد موطئاً لقدمه سواها لشدة تراصهم وتراكمهم، وانضمام بعضهم إلى بعض. وهذا الجمع الذي وصل منهم في هذا العام، لم يعهد قط مثله فيما سلف من الأعوام، ولله القدرة المعجزة لا إله سواه.

وفي هذا اليوم المذكور الذي هو السابع والعشرون من ذي القعدة، شمرت أستار الكعبة المقدسة إلى نحو قامة ونصف من الحدر من الجوانب الأربعة، ويسمون ذلك إحراماً لها، فيقولون أحرمت الكعبة، وبهذا جرت العادة دائماً في الوقت المذكور من الشهر، ولا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة، فكأنَّ ذلك التشمير إيذان بالتشمير للسفر وإيذان بقرب وقت وداعها المنتظر، لا جعله الله آخر وداع، وقضى لنا إليها بالعودة وتيسير سبيل الاستطاعة بعزته وقدرته.

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور، كان دخولنا إلي البيت الكريم، على حال اختلاس وانتهاز فرصه أوجدت بعض فرجة من الزحام، فدخلناه دخول وداع، إذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك لترادف الناس عليه، ولا سيما الأعاجم الواصلون مع الأمير العراقي، فإنهم يظهرون من التهافت عليه، والبدار إليه، والازدحام فيه، ما ينسي أحوال السرو اليمنيين لفظاظتهم وغلظتهم، فلا يتمكنْ لأحد منهم النظر فضلاً عن غير ذلك، والله عز وجل لا يجعله آخر العهد ببيته الكريم، ويرزقنا العود إليه على خير وعافية، بمنّه ولطيف صنعه.

وفي يوم إحرام الكعبة المذكور، أقلعت عن موضع المقام المقدس القبة الخشبية التي كانت عليه، ووضعت عوضها قبة الحديد إعداداً للأعاجم المذكورين، لأنها لو لم تكن حديداً لأكلوها أكلاً فضلاً عن غير لما هم عليه

من صحة النفوس شوقاً إلى هذه المشاهد المقدسة، ونطارحهم بأجرامهم عليها، والله ينفعهم بنباتهم بمنّه وكرمه.

وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور، جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه زهواً وإعجاباً، ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد إليه، ففتح الباب الكريم، وصعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى بأمراس من القنب غليظة يوثقونها في أوتاد الحديد المضروبة في السطح، ويرسلونها إلى الأرض، فيربط فيها شبيه محمل من العود، ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين، فيصعد به على بكرة معدة لذلك في أعلى السطح المذكور، فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الأستار.

فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبي المعزول إلى خطته، على صحة الهنات المنسوبة إليه، فأعلمنا أنه صودر عليها بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها. فطال التعجب من ذلك والاعتبار، وتحققنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه، مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة، والحال تشبه بعضها بعضاً «وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض»، وإلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى في أشرف بقاع الأرض، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

دار الخيزران في الصفا

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة المذكور، دخلنا دار الخيزران التي كان منها منشأ الإسلام، وهي بإزاء الصفا، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليه كان مسكن بلال رضي الله عنه، ويدخل إليها على حلق كبير شبيه الفندق قد أحدقت به بيوت للكراء من الحاج.

والدار المكرمة دار صغيرة، يجدها الداخل إلى الحلق المذكور عن يساره، وهي مجددة البناء، أنفق في بنائها جمال الدين ـ المذكور أثره الكريم في هذا المكتوب ـ نحو الألف دينار، نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح.

وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبي ﷺ والصخرة التي كان إليها مستنده، وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، والصخرة التي كان إليها مستنده هي داخلة في الجدار كشبه المحراب.

وفي هذه الدار كان إسلام عمر بن الخطاب، ومنها ظهر الإسلام على يديه وأعزه الله نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة، وأماتنا على محبة الذي شرفت بهم ونسبت إليهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

شهر ذي الحجة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس، بموافقة الخامس عشر من مارس، وكان للناس في ارتقابه أمر عجيب، وشأن من البهتان غريب، ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد ـ فضلاً عن غيره ـ رد وتكذيب.

شهود الهلال

وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين، والأفق قد تكاثق نوؤه وتراكم غيمه، إلى أن علته مع المغيب بعض حمرة من الشفق، فطمع الناس في فرجة من الغيم لعل الأبصار تلتقطه فيها، فبينما هم كذلك إذ كبَّر أحدهم، فكبر الجم الغفير لتكبيره، ومثلوا قياماً ينتظرون ما لا يبصرون، ويشيرون إلى ما يتخيلون، حرصاً منهم على أن يكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة، كان الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه.

فاختلفوا شهادات زورية، ومشت منهم طائفة من المغاربة ـ أصلح الله أحوالهم ـ ومن أهل مصر وأربابها، فشهدوا عند القاضي برؤيته. فردهم أقبح رد، وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح، وفضحهم في تزييف أقوالهم أخزى فضيحة، وقال: يا للعجب! لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس، تحت ذلك الغيم الكثيف النسج، لما قبلته، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة! وكان أيضاً مما حكى من قوله تشوشت المغارب، تعرضت شعرة من الحاجب، فأبصروا خيالاً ظنوه هلالاً.

وكان لهذا القاضي جمال الدين، في أمر هذه الشهادة الزورية، مقام من التوقف والتحري حمده له أهل التحصيل، وشكره عليه ذوو العقول. وحق لهم ذلك، فإنها مناسك الحج للمسلمين عظيمة، أتوا لها من كل فج عميق، فلو تسومح فيها بطل السعي، وقال الرأي. والله يرفع الالتباس والبأس بمنه.

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة، ظهر الهلال أثناء فرج السحاب، وقد اكتسى نوراً من الثلاثين ليلة، فزعقت العامة زعقات هائلة، وتنادت بوقفة

الجمعة، وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب سعينا ولا ضيع قصدنا، كأنهم قد صح عندهم أن الوقفة، إذا لم تكن توافق يوم الجمعة، ليس مقبولة ولا الرحمة فيها من الله مرجومة مأمولة؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الاجتهاد في وقفة عرفات

ثم أنهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا إلى القاضي، فأدوا شهادات بصحة الرؤية تُبكي الحق وتضحك الباطل، فردها وقال: يا قوم! حتى ما هذا التمادي في الشهوة؟ وإلى ما تستنون في طرق الهفوة؟ وأعلمهم أنه قد استأذن الأمير مكثر في أن يكون الصعود إلى عرفات صبيحة يوم الجمعة، فيقفوا عشية بها، ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده، ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة. فإن كانت الوقفة يوم الجمعة، فما عليهم في تأخير المبيت بمزدلفة بأس، إذ هو جائز عند أئمة المسلمين، وإن كانت يوم السبت فبها ونعمت، وأما أن يقع القطع بها يوم الجمعة، فتغرير بالمسلمين وإفساد لمناسكهم، لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة كما أنهم عندهم جائزة يوم النحر. فشكر جميع من حضر للقاضي هذا المنزع من التحقيق، ودعوا له، وأظهر من حضر من العامة الرضى بذلك، وانصرفوا عن سلام. والحمد لله على ذلك.

وهذا الشهر المبارك هو ثالث الأشهر الحرم وعشره الأولى مجتمع الأمم، وموسم الحج الأعظم: شهر العج والثج، وملتقى وفود الله من كل أوب وفج، مصاب الرحمة والبركات، ومحل الموقف الأعظم بعرفات. جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات، وتعرى به من ملابس الأوزار والسيئات، بمنّه وكرمه، أنه أهل التقوى وأهل المغفرة. والأمير العراقي منتظر لكشف هذا الإلباس عن الناس في أمر الهلال، لعله قد اتضح له اليقين فيه إن شاء الله.

وفي سائر هذه الأيام كلها إلى هلم جرا، تصل رفاق من السرو اليمنيين، وسائر حجاج الآفاق، لا يحصى عددها إلا محصي آجالها وأرزاقها لا إله سواه. فمن الآيات البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هذا البلد الأمين، الذي هو بطن واد سعته غلوة أو دونها، ولو أن المدن العظيمة حمل عليها هذا الجمع لضاقت عنه.

وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات، في اتساعها

لهذا البشر المعجز إحصاؤه، إلا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها تتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها، وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة بهذا البلد الحرام، عظم الله حرمته، ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله.

ومن أول هذا الشهر المبارك ضربت دبادب الأمير بكرة وعشية، وفي أوقات الصلوات، كأنها أشعار بالموسم، ولا يزال كذلك إلى يوم الصمود إلى عرفات، عرفنا الله بها القبول والرحمة.

وصول الأمير عثمان بن علي صاحب عدن

وفي يوم الاثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر، وصل الأمير عثمان بن علي صاحب عدن، وخرج منها فارّاً أمام سيف الإسلام المتوجه إلى اليمن، وركب البحر في جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال لا تحصى كثرة، لأنه طال مقامه في تلك الولاية واتسع كسبه.

وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر... لحقت جلبه حراريق الأمير سيف الإسلام، فأخذت جميع ما فيها من الأثقال، وكان قد استصحب الخفَّ النفيس الخطير مع نفسه إلى البر، وهو في جملة من رجاله وعبيده، فسلم به، ووصل مكة بعير موقرة متاعاً ومالاً، دخلت على أعين الناس إلى داره التي ابتناها بها، بعد أن قدم نفيس ذخائره وناضرة ماله وحملة رقيقه وخدمه ليلاً، وبالجملة فحاله لا توصف كثرة واتساعاً.

والذي انتهت له أكثر، لأنه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار، وكانت المنافع التجارية كلها راجعة إليه، الذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلى يديه، فاكتسب سحتاً عظيماً، وحصل على كنوز قارونية؛ لكن حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به، ولا يدري حال أمره مع صلاح الدين لما يكون. والدنيا مفنية محبيها، وآكلة بنيها وثواب الله خير ذخيرة، وطاعته أشرف غنيمة، لا إله سواه.

وبقيت الشهادة مضطربة في أمر هذا الهلال المبارك الميمون، إلى أن تواصلت الأخبار برؤيته ليلة الخميس، الذي يوافق الخامس عشر من مارس، شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع، يمنيون وسواهم، من الواصلين من المدينة المكرمة، لكن بقى القاضي على ثباته وتوقفه في القبول، وإرجاء الأمر

إلى وصول المبشر المتعلم بوصول الأمير العراقي، ليتعرف من قبله ما عند أمير الحاج في ذلك.

فلما كان يوم الأربعاء، السابع من الشهر المذكور، وصل المبشر، وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبطئه، حذراً من حقد الخليفة على أميرهم مكثر، لمذموم فعل صدر عنه. فكان وصول هذا البشير أماناً وتسكيناً للنفوس الشاردة، فوصل مبشراً ومؤنساً، وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور، وتواترت الأنباء بذلك.

فصح الأمر عند القاضي بذلك صحة أوجبت خطته في ذلك اليوم ـ على ما جرت به العادة في اليوم السابع من ذي الحجة، أثر صلاة الظهر ـ علم الناس فيها مناسكهم، ثم أعلمهم أن عدهم هو يوم الصعود إلى منى، وهو يوم التروية، أن وقفتهم يوم الجمعة، وأن الأثر الكريم فيها عن رسول الله ﷺ بأنها تعدل سبعين وقفة، ففضل هذه الوقفة في الأعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام.

فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود إلى منى، وتمادوا منها إلى عرفات، وكانت السنة المبيت بها، لكن ترك الناس ذلك اضطراراً، بسبب خوف بني شعبة المغيرين على الحجاج في طريقهم إلى عرفات. وصدر عن هذا الأمير عثمان، المتقدم ذكره، في ذلك اجتهاد، بل جهاد يرجى له به المغفرة لجميع خطاياه إن شاء الله.

وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه، شاكين في الأسلحة، إلى المضيق الذي بين مزدلفة وعرفات، وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين، فينحدر الشعبيون من أحدهما ـ وهو الذي عن يسار المار إلى عرفات ـ فينتهبون الحاج انتهاباً. فضرب هذا الأمير قبة في ذلك المضيق بين الجبلين، بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد إلى رأس الجبل بفرسه ـ وهو جبل كؤود ـ فعجبنا من شأنه، وأكثر التعجب من أمر الفرس، وكيف تمكن له الصعود إلى ذلك المرتقى الصعب الذي لا يرتقيه...

فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الأمير لهم، فحصل على أجرين: أجر جهاد وحج، لأن تأمين وفد الله عز وجل في مثل ذلك اليوم من أعظم

الجهاد. واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها إلى يوم الجمعة كله، فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده إلا الله عز وجل.

ومزدلفة بين منى وعرفات: من منى إليها ما من مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال، ومنها إلى عرفات مثل ذلك أو أشف قليلاً، وتسمى المشعر الحرام، وتسمى جمعاً، فلها ثلاثة أسماء. وقبلها بنحو الميل وأدى محسِّر، وجرت العادة بالهرولة فيه، وهو حد بين مزدلفة ومنى لأنه معترض بينهما.

ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله، وفي وسط ذلك البسيط من الأرض حلق، في وسطه قبة، في أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين، يزدحم الناس في الصعود إليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها.

وعرفات أيضاً بسيط من الأرض مد البصر، لو كان محشراً للخلائق لوسعهم، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة، وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة، وفيه وحوله موقف الناس، والعلمان قبله بنحو الميلين، فما أمام العلمين، إلى عرفات حل وما دونهما حرم.

وبمقربة منهما، مما يلي عرفات، بطن عرفة الذي أمر النبي ﷺ، بارتفاع عنه في قوله، ﷺ: «عرفات كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرفة».

فالواقف فيه لا يصح حجه، فيجب التحفظ من ذلك، لأن الجمالين عشية الوقفة ربما استحثوا كثيراً من الحاج، وحذروهم الزحمة في النفر، واستدرجوهم بالعلمين اللذين أمامهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرفة أو يجيزوه، فيبطلوا على الناس حجهم. والمتحفظ لا ينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس.

وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال، قائم في وسط البسيط، وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض، وكان صعب المرتقى، فأحدث فيه جمال الدين، المذكورة مآثره في هذا التقييد، أدراجاً وطية من أربع جهاته، يصعد فيها بالدواب الموقورة، وأنفق فيها مالاً عظيماً.

وفي أعلى الجبل قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، ولا يعرف صحة ذلك. وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحول ذلك

المسجد المكرم سطح محدق به، فسيح الساحة، جميل المنظر، يشرف منه على بسيط عرفات، وفي جهة القبلة منه جدار، وقد نصبت فيه محاريب يصلي الناس فيها.

وفي أسفل هذا الجبل المقدس ـ عن يسار المستقبل للقبلة فيه ـ دار عتيقة البنيان، وفي أعلاها غرف لها طيقان، تنسب إلى آدم ﷺ. وعن يسار هذه الدار ـ في استقبال القبلة ـ الصخرة التي كان عندها موقف النبي ﷺ، وهي في جبل متطأمن، وحول جبل الرحمة والدار المكرمة، صهاريج للماء وجباب، وعن يسار الدار أيضاً ـ على مقربة منها ـ مسجد صغير.

وبمقربة من العلمين ـ عن يسار مستقبل القبلة ـ مسجد قديم فسيح البناء، بقي منه الجدار القبلي، فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة، ثم يجمع بين الظهر والعصر، وعن يسار العلمين أيضاً ـ في استقبال القبلة ـ وادي الأراك، وهو أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتداداً طويلاً.

الوقوف بعرفات

فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس وليلة الجمعة كلها. وفي نحو الثلث الباقي من ليلة الجمعة المذكورة، وصل أمير الحاج العراقي، فضرب أبنيته في البسيط الأفيح، مما يلي الجانب الأيمن من جبل الرحمة، في استقبال القبلة. والقبلة في عرفات هي إلى مغرب الشمس، لأن الكعبة المقدسة في تلك الجهة منها.

فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمع لا شبيه له إلا الحشر، لكنه ـ إن شاء الله تعالى ـ حشر للثواب، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب. زعم المحققون من الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعاً أحفل منه، ولا أرى كان من عهد الرشيد، الذي هو آخر من حج من الخلفاء، جمع في الإسلام مثله. جعله الله جمعاً مرحوماً معصوماً بعزته.

فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور، وقف الناس خاشعين باكين، وإلى الله عز وجل في الرحمة متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع. فما رؤي يوم أكثر مدامع، ولا قلوباً

خواشع، ولا أعناقاً لهيبة الله خوانع خواضع، من ذلك اليوم. فما زال الناس على تلك الحالة، والشمس تلفح وجوههم، إلى أن سقط قرصها، وتمكن وقت المغرب.

وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين، ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور. وأخذ السرو اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات، المتوارثة عن جد فجد من عهد النبي ﷺ، لا تتعدى قبيلة على منزل قبيلة أخرى، وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله.

وكذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين، ومن النساء العقائل، المعروفات بالخواتين: واحدتهن خاتون ومن السيدات بنات الأمراء كثير، ومن سائر العجم عدد لا يحصى. فوقف الجميع، وقد جعلوا قدوتهم في النَّفر الإمام المالكي، لأن مذهب مالك رضي الله عنه يقتضي أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب، ومن السور اليمنيين من نفر قبل ذلك.

فلما أن حان الوقت، أشار الإمام المالكي بيديه، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الأرض، ورجفت الجبال. فيا له موقفاً ما أهول مرآه، وأرجى في النفوس عقباه! جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه، وتغمده بنعماه، إنه منعم كريم حنان منان.

وكانت محلة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر، بهية العدة، رائقة المضارب والأبنية، عجيبة القباب والأروقة، على هيئات لم ير أبدع منها منظراً. فأعظمها مرآى مضرب الأمير، وذلك أنه أحدق به سرادق كالسور من كتان، كأنه حديقة بستان، أو زخرفة بنيان، وفي داخله القباب المضروبة، وهي كلها سواد في بياض، مرقشة ملونة كأنها أزاهير الرياض. وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل في البياض، يستشعر الناظر إليها مهابة، يتخيلها درقاً لمطية قد جللتها مزخرفات الأغشية.

ولهذا السرادق، الذي هو كالسور المضروب، أبواب مرتفعة كأنها

أبواب القصور المشيدة، يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج، ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب؛ وكأن هذا الأمير ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله، وهي من الأبهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب. وداخل تلك الأبواب حُجَّاب الأمير وخدمه وغاشيته، وهي أبواب مرتفعة، يجيء الفراس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ، قد أحكمت إقامة ذلك كله أمراس وثيقة من الكتان، تتصل بأوتاد مضروبة، أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب.

ولسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك، لكنها على تلك الصفة، وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة؛ إلى ما يطول وصفه، ويتسع القول فيه، من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة والعدة، وغير ذلك مما يدل على سعة الأحوال، وعظيم الانخراق في المكاسب والأموال.

ولهم أيضاً في مراكبهم على الإبل قباب تظلهم بديعة المنظر، عجيبة الشكل، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات، وهي كالتوابيت المجوفة، هي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال، تملأ بالفرش الوثيرة، ويقعد الراكب فيها مستريحاً كأنه في مهاد لين فسيح، وبإزائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى، والقبة مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيف ما أحبا.

فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين إن كانا من أهل الترفه والتنعم، يدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه، فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما، ولا خطفة شمس تصيبهما. وناهيك من هذا الترفيه، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وإن بعدت شقته نصباً، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً.

ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات، وهي شبيهة الشقادف التي تقدم وصفها في ذكر صحراء عيذاب، لكن الشقادف أبسط وأوسع، وهذه أضم وأضيق، وعليها أيضاً ظلائل تقي حر الشمس، ومن قصرت حاله عنها في هذه الأسفار، فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب.

ثم يرجع القول إلى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة بعرفات؛ وذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر، فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة، فجمعوا بها بين العشائين حسبما جرت به سنة النبي ﷺ. واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المسرج، وأما مسجده المذكور فعاد كله نوراً، فيحيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به.

وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة؛ لأن هؤلاء الأعاجم الخراسانيين وسواهم من العراقيين، أعظم الناس همة في استجلاب هذا الشمع، والاستكثار منه إضاءة لهذه المشاهد الكريمة. وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه، فيدخل منهم كل إنسان بشمعة في يده، وأكثر ما يقصدون بذلك حطيم الإمام الحنفي، لأنهم على مذهبه. وشاهدنا منه شمعاً عظيماً أُحضر، تنوء الشمعة منه بالعصبة كأنه السرو، وضع أمام الحنفي.

فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة، وهي ليلة السبت، فلما صلوا الصبح غدوا منه إلى منى بعد الوقوف والدعاء، لأن مزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، ففيه تقع الهرولة في التوجه إلى منى حتى يخرج منه. ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وهو المستحب، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخَيف بمنى، وكل ذلك واسع.

فلما انتهى الناس إلى منى، بادروا لرمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحروا أو ذبحوا، وحللوا من كل شيء إلا النساء والطيب يطوفون طواف الإفاضة. ورمِي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر، ثم توجه أكثر الناس لطواف الإفاضة، ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني، ومنهم من أقام إلى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار إلى مكة.

فلما كان اليوم الثاني من يوم النحر، عند زوال الشمس، رمى الناس بالجمرة الأولى سبع حصيات، وبالجمرة الوسطى كذلك، وبهاتين الجمرتين يقفون للدعاء، وبجمرة العقبة كذلك، ولا يقفون بها، اقتداء في ذلك كله بفعل النبي ﷺ، فتعود جمرة العقبة في هذين اليومين أخيرة، وهي يوم النحر أولى منفردة لا يخلط معها سواها.

وفي اليوم الثاني من يوم النحر، بعد رمي الجمرات، خطب الخطيب بمسجد الخيف، ثم جمع بين الظهر والعصر. وهذا الخطيب وصل مع الأمير العراقي، مقدماً من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة على ما يذكر، ويعرف بتاج الدين، وظاهر أمره البلادة والبله، لأن خطبته أعربت عن ذلك، ولسانه لا يقيم الإعراب.

فلما كان اليوم الثالث، تعجل الناس في الانحدار إلى مكة، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين جمرة: سبع منها يوم النحر بالعقبة وهي المحللة، ثم إحدى وعشرون في اليوم الثاني بعد زوال الشمس: سبعاً سبعاً في الجمرات الثلاث، وفي اليوم الثالث كذلك ونفر إلى مكة: فمنهم من صلى العصر بالأبطح، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام، ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح.

ومضت السنة قُدماً بإقامة ثلاثة أيام، بعد يوم النحر، بمنى لأَكمال رمي سبعين حصاة. فوقع التعجيل في هذا الزمان في اليومين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه**﴾، وذلك مخافة بني شعبة، وما يطرأ من حرَّابة المكيين.

وقد كانت في يوم الانحدار المذكور، بين سودان أهل مكة وبين الأتراك العراقيين، جولة وهوشة، وقعت فيها جراحات، وسلت السيوف، وفوقت القسي، ورميت السهام، وانتهب بعض أمتع التجار، لأن منى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق: يباع فيها من الجوهر النفيس، إلى أدنى الخرز، إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا؛ لأنها مجتمع أهل الآفاق. فوقى الله شر تلك الفتنة تسكيناً لها سريعاً، وكانت عين الكمال في تلك الوقفة الهنيئة، وكمل للناس حجهم، والحمد لله رب العالمين.

كسوة الكعبة المقدسة

وفي يوم السبت، يوم النحر المذكور، سيقت كسوة الكعبة المقدسة، من محلة الأمير العراقي إلى مكة، على أربعة جمال. تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية، والرايات على رأسه، والطبول تهر وراءه، وابن عم الشيبي محمد بن إسماعيل معها؛ لأنه ذكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه، والله يظهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه.

وهذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه وأمثل حالاً، وقد تقدم ذكر ذلك في العزلة الأولى.

فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة. فلما كان يوم الثلاثاء، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور، اشتغل الشيبيون باسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسناً، في أعلاها رسم أحمر واسع، مكتوب فيه في الصفح الموجه إلى المقام الكريم ـ حيث الباب المكرم ـ وهو وجهها المبارك، بعد البسملة ﴿**إن أول بيت وضع للناس**﴾ الآية، وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن، وذكر الخليفة أيضاً.

فكملت كسوتها، وشمرت أذيالها الكريمة، صوناً لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها، وقوة تهافتها عليها وانكبابها؛ فلاح للناظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جليت في السندس الأخضر. أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها، حريص على المثول بفنائها، بمنه.

وفي هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين، وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي، فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم، ووصول بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه، يؤدي إلى تلف المهج وكسر الأعضاء.

وهم في خلال ذلك لا يبالون ولا يتوقفون، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح، إلقاء الفراش بنفسه على المصباح. فعادت أحوال السرو اليمنيين، في دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر، حال تؤدة ووقار بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأغتام، نفعهم الله بنياتهم، وقد فقد منهم في ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله، والله يغفر للجميع. وربما زاحمهم في تلك الحال بعض نسائهم، فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخاً في مضيق ذلك المعترك الذي حمي بأنفاس الشوق وطيشه، والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده، بعزته.

وفي ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك، إثر صلاة العتمة،

نصب منبر الوعظ أمام المقام. فصعده واعظ خراساني، حسن البشارة، مليح الإشارة، يجمع بين اللسانين عربي وعجمي، فأتى في الحالين بالسحر الحلال من البيان، فصيح المنطق، بارع الألفاظ؛ ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم، فيهزهم اضطراباً، ويذيبهم زفرات وانتحاباً.

فلما كانت الليلة الأخرى بعدها، وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفي، فصعد إثر صلاة العتمة أيضاً شيخ أبيض السبال، رائع الجلال، بارع التمام في الفصل والكمال؛ فصدع بخطبة انتظمت آية الكرسي كلمة كلمة، ثم تصرف في أساليب من الوعظ وأفانين من العلم باللسانين أيضاً، حرك بها القلوب حتى أطارها، وأورثها احتداماً بالخشية بعد استعارها. وفي أثناء ذلك ترشقه سهام من المسائل، فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ فتحار له الألباب، ويملك كل نفس منه الاغراب والاعجاب، فكأنما هو وحي يوحى.

وهذا الذي مشى به وعاظ هذه الجهات المشرقية، من إلقاء المسائل إليهم، وإفاضة شآبيب الامتحان عليهم؛ من أعجب الأمور المعربة عن غريب شأنهم، والناطقة بسحر بيانهم. وليست في فن واحد. إنما هي في فنون شتى، وربما قصد بها التعنيت والتنكيت، فيأتون بالجواب كخطفة البرق، وارتداد الطرف. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وبين أيدي هؤلاء الوعاظ قراء ينعمون بالقراءة، فيأتون بألحان تكسب الجماد طرباً وأريحية، كأنها المزامير الداوودية، فلا تدري من أي أحوال هذا المجتمع تعجب، والله يؤتي الحكمة من يشاء، لا إله سواه.

وسمعت هذا الشيخ الواعظ يسند الحديث إلى خمسة من أجداده، جد عن جد، نسقاً مسلسلاً من أبيه إليهم على اتصال، كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم، ومكانته من التذكير والوعظ؛ فهو معرق في الصنعة الشريفة، تليد المجد فيها.

وفي أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام ـ نزهه الله وشرفه ـ سوقاً عظيمة: يباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البر إلى الدر، إلى غير ذلك من السلع، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب بني شيبة. ومعظم السوق

في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، وفي البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق، وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم. والله غالب على أمره لا إله سواه.

ختام رحلة ابن جبير

وفي عشي يوم الأحد الموفى عشرين من الشهر المذكور، وهو أول أبريل، كان تبريزنا إلى محلة الأمير العراقي بالزاهر ـ وهو على نحو من الميلين من البلد ـ وقد كمل اكتراؤنا إلى الموصل، وهو أمام بغداد بعشرة أيام، عرفنا الله الخير والخيرة بمنه، فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق، ونعيد وداعه.

فلما كان ضحوة يوم الخميس، الثاني والعشرين من ذي الحجة المذكور، أقلعت المحلة على تؤدة ورفق بسبب البطء والتأخر، ونزلت على نحو ثمانية أميال من الموضع الذي أقلعت منه، بمقربة من بطن مرّ، والله كفيل بالسلامة والعصمة بمنه.

فكانت مدة مقامنا بمكة ـ قدسها الله ـ من يوم وصولنا إليها، وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين إلى يوم إقلاعنا من الزاهر، وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر وثلث شهر، التي هي ـ بحسب الزائد والناقص من الأشهر ـ مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوماً سعيدات مباركات ـ جعلها الله لذاته، وجعل القبول لها موافقاً لمرضاته، بمنه ـ غبناً عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام: يوم عرفة، وثاني يوم النحر، ويوم الأربعاء الذي هو الحادي والعشرون لذي الحجة، قبل يوم الخميس، يوم إقلاعنا من الزاهر. والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم، بمنه.

ثم أقلعنا من ذلك الموضع، إثر صلاة الظهر من يوم الخميس، إلى بطن مر، وهو واد خصيب كثير النخل، ذو عين فوارة سيالة الماء، تسقى منها أرض تلك الناحية. وعلى هذا الوادي قطر متسع، وقرى كثيرة وعيون، ومنه تجلب الفواكه إلى مكة ـ حرسها الله ـ فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب.

وذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود، ملك الدروب والأرمن وما يلي من بلاد الروم، وهي إحدى الخواتين الثلاث اللاتي وصلن للحج مع أمير

الحاج أبي المكارم طاشتكين، مولى أمير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة، وله بتولي هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد.

وخاتون هذه أعظم الخواتين قدراً بسبب سعة مملكة أبيها. والمقصود من ذكر أمرها أنها أسرت من بطن مر ليلة الجمعة إلى مكة، في خاصة من خدمها وحشمها، فتفقد موضعها يوم الجمعة المذكور، فوجه الأمير ثقات من خاصة أصحابه يستطلعونها في الانصراف، وأقام بالناس منتظراً لها، فوصلت عتمة يوم السبت.

وأجيلت في سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون: فمنهم من يقول إنها انصرفت أنفة لبعض ما انتقدته على الأمير، ومنهم من قال إن نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها إلى المثابة المكرمة، ولا يعلم الغيب إلا الله. وكيف ما كان الأمر، فقد كفى الله العطلة بسببها، وأطلق سبيل الحاج، ولله الحمد على ذلك.

وأبو هذه المرأة المذكورة الأمير مسعود كما ذكرناه، وهو في بسطة من ملكه، واتساع من إمرته؛ يركب له ـ على ما حقق عندنا ـ أكثر من مائة ألف فارس. وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها، ويركب له أيضاً نحو اثنى عشر ألف فارس.

ولخاتون هذه أفعال من البر كثيرة في طريق الحاج: منها سقي الماء للسبيل، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد، واستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعير. وأمرها يطول وصفها، وسنها نحو خمسة وعشرين عاماً.

والخاتون الثانية: أم معز الدين صاحب الموصل، زوج بابك أخي نور الدين، الذي كان صاحب الشام رحمه الله. ولهذه أفعال كثيرة من البر.

وخاتون الثالثة: ابنة الدقوس، صاحب أصبهان من بلاد خراسان، وهي أيضاً كبيرة القدر، عظيمة الشأن، منافسة في أفعال البر.

وشأنهن جمع عجيب جداً في ما هن بسبيله من الخير، والاحتفال في الأبهة الملوكية.

ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين لذي الحجة المذكور، ونزلنا بمقربة من عُسفان، ثم أسرينا إليها نصف الليل، وصبحناها بكرة يوم الأحد. وهي في بسيط من الأرض بين جبال، وبها آبار معينة تنسب لعثمان رضي الله عنه، وشجر المقل فيها كثير، وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة، غير معمور، قد أثر فيه القدم، وأوهته قلة العمارة ولزوم الخراب؛ فاجتزناها بأميال، ونزلنا مريحين قائلين.

مكـة المكرمـة
مـن خـلال رحلـة
ابـن بطوطـة

مقدمة وتمهيد لنصوص الرحلة

ابن بطوطة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة. وقد اشتهرت أسرته بهذا اللقب أيضاً. ينسب إلى قبيلة لواتة البربرية.

ولد ابن بطوطة يوم الاثنين في ١٧ رجب عام ٧٠٣ هـ، ٢٥ شباط (فبراير) عام ١٣٠٤ م في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق شمال المغرب. نشأ ابن بطوطة في منزل علم وفقه، واشتهرت عائلته بتولي مناصب القضاء. وقد تهيأ منذ صغره للتعلم والتفقه لتولي القضاء كباقي أعضاء أسرته. غير إنه عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره قرر القيام بالحج إلى بيت الله الحرام، والاستزادة من العلماء المسلمين في المشرق.

وبالفعل ففي يوم الخميس ٢ رجب من عام ٧٢٥ هـ ـ ١٣٢٦ م غادر ابن بطوطة بلاده. وكان المغرب حينذاك تحت السلطان أبي سعيد عثمان من سلاطين بني مربن. وفي ذلك يقول في رحلته: «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والديَّ بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصباً... وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين... أبو سعيد بن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حد الشرك صدق عزائمه،

واطفأت نار الكفر جداول صارفه، وفتكت بعبَّاد الصليب كتائبه...»[١].

هذا وقد توجه ابن بطوطة إلى تونس عن طريق تلمسان ومليانة والجزائر وبجاية وقسنطينة وعنابة (بونة القديمة). ثم توجه إلى الاسكندرية ماراً بسوسة وصفاقس وقابس وطرابلس الغرب ومسلاته ومسراته وسرت وبرصيصا. وفي أول جمادى الأولى عام ٧٢٥ هـ رحل إلى الإسكندرية.

ومن الإسكندرية توجه ابن بطوطة إلى القاهرة بعد أن مر بمدن وبلدات وقرى مصرية عديدة. ثم تابع باتجاه مجرى النيل إلى جنوب مدينة الأقصر ومنها إلى البحر الأحمر بهدف الوصول إلى الأراضي الحجازية، غير أن الأوضاع الحربية التي شهدها البحر الأحمر منع ابن بطوطة من ركوبه، واضطر إلى العودة إلى القاهرة التي قال فيها: «وصلت مدينة مصر [القاهرة] وهي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة...»[٢].

ومن القاهرة سافر ابن بطوطة إلى بلاد الشام، فزار غزة والقدس والرملة ونابلس وعجلون وعكا وعسقلان وحيفا ويافا وبلدات فلسطينية عديدة. ثم زار صور وصيدا، «ثم سرنا إلى مدينة بيروت، وهي صغيرة، حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن. ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه»[٣].

ومن بيروت توجه ابن بطوطة باتجاه «البقاع العزيز» ومن بلداته وقراه اتجه نحو الشمال فزار طرابلس، ثم زار حلب وحمص وحماه وجبلة واللاذقية، ومنها توجه إلى دمشق التي أقام فيها فترة من الزمن، وطاف على ملامحها ومواقعها ومساجدها ومنها المسجد الأموي. كما تحدث عن أوقافها الإسلامية الخيرية. ومما قاله عن أهل دمشق: «أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة،

---

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ ١، ص ٣٠. تحقيق وتقديم وتعليق د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩٥هـ.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ٥٣.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ٨٢.

ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد. . .»[1].

ومن دمشق سافر ابن بطوطة إلى بلاد الحجاز في مستهل شهر شوال عام ٧٢٦ هـ مع قافلة الحج الشامي الذي تقدمها الأمراء والقضاة والفقهاء منهم أمير الركب سيف الدين الجوبان والأمير محمد بن رافع والقاضي شرف الدين الأذرعي الحوراني ومدرس المالكية صدر الدين العماري.

وخلال أيام معدودة وصل إلى تبوك بعد أن مر والقافلة ببلدان عديدة. ثم وصلت القافلة إلى المدينة المنورة، فصلى ابن بطوطة في الحرم الشريف والروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم «وأدينا حق السلام على سيد الأولين والأخرين، وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي. . . وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما»[2].

وبعد أن وصف ابن بطوطة المسجد الشريف في المدينة المنورة، تحدث عن تاريخه وتاريخ إنشائه منذ عهد الرسول محمد ﷺ وتوسيعه والإضافة عليه في عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين، وكذلك في عهود أخرى منها العهد المملوكي لا سيما في عهد الملك المنصور قلاوون. . . ثم تحدث عن وجهاء المدينة المنورة والمجاورين لها من الأمراء والفقهاء. كما وصف بعض ملامح ومواقع المشاهد الكريمة في المدينة المنورة مثل الغرقد وقباء وجبل أُحد وقبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنهما وقبور العديد من الصحابة الكرام.

من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة

توجه ابن بطوطة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وفي وادي العقيق تجرد ابن بطوطة من مخيط الثياب واغتسل، ولبس ثوب الاحرام وصلى ركعتين وأحرم بالحج مفرداً. ثم مر على عدة مناطق مثل الروحاء والصفراء وبدر «حيث نصر الله رسوله ﷺ، وأنجز وعده الكريم، واستأصل

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ١١٨.
(٢) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٣٣.

صناديد المشركين. . .». ثم مر ابن بطوطة إلى بقاع البزواء ووادي رابغ وخليص ثم إلى عقبة السويق وعسفان وبطن مر الذي يسمى أيضاً مر الظهران.

وبعد أن مر ابن بطوطة بتلك المناطق وصل صباحاً إلى مكة المكرمة شرفها الله تعالى، ودخل البيت الحرام الشريف من باب بني شيبة، وشاهد الكعبة الشريفة وطاف بها، وصلى ركعتين بمقام سيدنا إبراهيم، ثم تعلق بأستار الكعبة، وشرب من ماء زمزم، وسعى بين الصفا والمروة.

هذا وقد وصف ابن بطوطة مكة المكرمة مشيراً إلى أنها مدينة كبيرة، متصلة البنيان، مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وجبالها ليست مرتفعة جداً أهمها جبال: أبي قبيس، وقعيقعان، وأجياد الأكبر وأجياد الأصغر والخندمة. أما المناسك فهي منى وعرفة والمزدلفة.

وأشار ابن بطوطة إلى أبواب مكة فقال إنها ثلاثة: باب المعلي بأعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها الذي يعرف أيضاً بباب العمرة وهو إلى جهة المغرب، وباب المسفل وهو من جهة الجنوب الذي دخل منه خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح(١). وأفادنا ابن بطوطة عن الفواكه التي كانت تجبى إليها مثل العنب والتين والخوخ والرطب والبطيخ والخضر.

أما المسجد الحرام فقد وصفه ابن بطوطة، بأنه في وسط البلد وهو متسع الساحة، طوله من الشرق إلى الغرب حوالي أربعمائة ذراع، وهكذا بالنسبة لعرضه. وقد نقل هذه المعلومات عن الأزرقي. أما ارتفاع جدرانه فهو نحو عشرين ذراعاً وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها. أما عدد سواريه الرخامية فهي أربعمائة وإحدى وتسعون سارية. وأشار إلى أن للخليفة المهدي بن الخليفة أبي جعفر المنصور آثاراً كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه.

أما فيما يختص بالكعبة المشرفة فهي ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة، وبناؤها بالحجارة الصم السمر، قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٥٣.

وأشده. أما ارتفاع بابها عن الأرض فهو أحد عشر شبراً ونصف الشبر وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً. ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، كما يفتح في يوم مولد النبي ﷺ. وقد وصف ابن بطوطة المراسم المتبعة عند فتحه(١).

ووصف ابن بطوطة داخل الكعبة المشرفة المفروشة بالرخام المجزع. أما ستور الكعبة فهي من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض. ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف ليلاً أو نهاراً. ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران. وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات. ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض، فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه. وهذا ما سبق أن أشار إليه ابن جبير.

ثم تحدث ابن بطوطة عن الميزاب الذي يلي الحجر، كما وصف الحجر الأسود والطواف وقبة بئر زمزم التي تقابل الحجر الأسود، ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه. وأشار إلى أن في هذه القبة اختزان للمصاحف الشريفة، منها مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه نسخ سنة (١٨) من وفاة رسول الله ﷺ، وإن «أهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة، أخرجوا هذا المصحف الشريف وفتحوا باب الكعبة، ووضعوه على العتبة الشريفة، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم، داعين متضرعين، متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف. فلا ينفعلون إلا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه»(٢).

ووصف ابن بطوطة أبواب المسجد الحرام وهي تسعة عشر باباً، وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة أخرى منها: باب الصفا الذي كان يعرف قديماً بباب بني مخزوم، وهو أكبر أبواب المسجد. وباب بني شيبة، ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام منه. وباب أجياد الأصغر، وباب

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٥٩.

الخياطين، وباب العباس، وباب النبي ﷺ، وباب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء، وباب الرباط، وباب الندوة، وباب السدرة، وباب العمرة، وباب إبراهيم[1]، وباب الحزوة وسواها.

وأشار ابن بطوطة إلى مدرسة قرب باب العمرة أقامها السلطان يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي كان يكسو الكعبة، إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون. كما أشار إلى زاوية بخارج باب إبراهيم، وفيها دار إمام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل. وبإزاء باب إبراهيم كان يجلس الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الافشهري، وعنده أيضاً دار الشيخ الصالح دانيال العجمي. وأشار ابن بطوطة إلى دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين، ودار العجلة، ودار الشرابي الموجودة حول الحرم الشريف. ومن المشاهد المقدسة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي، وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، بمقربة من باب الرسول ﷺ. وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام، وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه. أما المسافة بين الصفا والمروة فقد أشار ابن بطوطة إلى أنها أربعمائة وثلاثة وتسعون خطوة. وأشار إلى سوق بين الصفا والمروة هو سوق عظيم، يباع فيه الحبوب واللحم والتمر والسمن والفواكه، وإلى أن ليس بمكة سوق منتظم سواه، إلا سوق البزازين وسوق العطارين عند باب شيبة. أما عن يمين المروة فقد وجد دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نمي.

وتحدث ابن بطوطة عن جبانة مكة المكرمة الواقعة خارج باب المعلي. وبهذه الجبانة مدافن جم غفير من الصحابة والتابعين والعلماء الصالحين والأولياء، غير أن مشاهدهم دثرت ولم يعد أهل مكة يعرفون مواقعها باستثناء بعضها «فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بن خويلد... وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور... وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات، وطريق

(١) اختلف الناس وقتذاك في نسبة الباب، فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، وبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخوزي من الأعاجم. انظر: ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٦٠.

الذاهب إلى الطائف وإلى العراق»[1] وأشار ابن بطوطة إلى قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب، وإلى ثلاثة مساجد بنتها السيدة عائشة رضي الله عنها على طريق التنعيم «وطريق التنعيم طريق فسيح، والناس يتحرون كنسه في كل يوم رغبة في الأجر والثواب، لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافياً. وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة». ثم تحدث ابن بطوطة عن جبال مكة المكرمة التي سبق أن ذكرها، ولكن هنا فصّل الحديث عنها، موضحاً «إن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى، وقد استودع فيه الحجر زمان الطوفان. وكانت قريش تسميه الأمين لأنه أدى الحجر الذي استودعه فيه الخليل إبراهيم عليه السلام. ويقال إن قبر آدم عليه السلام به. وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي ﷺ حين انشق له القمر»[2]. ولما تحدث ابن بطوطة عن كل جبل شرح الأحداث المتعلقة به أو التي وقعت عليه، منها غار حراء في جبل ثور وحادثة لجوء النبي محمد ﷺ إلى هذا الغار ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وكانت إمارة مكة المكرمة حين دخول ابن بطوطة إليها للشريفين الأخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين. ومن عادات أهل مكة الدعاء لهما، كما تضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب في كل يوم. ولما تحدث ابن بطوطة عن أخلاق أهل مكة المكرمة قال: «ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم إنهم متى صنع أحدهم وليمة، يبدأ فيها بالطعام للفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم»[3]. وأشار إلى كرم أخلاق أهل مكة، وإلى موقف الأغنياء الذين لا يردون الفقراء خائبين، «ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها، طيب النفس بذلك من غير ضجر».

وأشار ابن بطوطة إلى أفعال أهل مكة الحسنة والمحمودة وهي «إن

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٦٣.
(٢) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٦٥.
(٣) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٦٨.

الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى، وهم يسمون القفة مكتلا، فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي. فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى... وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر»[1].

وعن نساء مكة المكرمة أشار ابن بطوطة إلى خصالهن الحميدة قائلاً: ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، وذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى أن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً»[2].

وتحدث ابن بطوطة عن قاضي مكة وخصاله الحميدة نجم الدين محمد بن الإمام العالم محيي الدين الطبري «وهو فاضل، كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، حسن الأخلاق، كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة...» ثم تحدث عن ابنه القاضي شهاب الدين فاضل الطبري، وعن خطيب مكة بهاء الدين الطبري. كما أورد أسماء الفقهاء في مكة وإمام الشافعية وإمام الحنابلة.

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) المصدر ذاته، جـ ١، ص ١٦٩.

عادات وتقاليد أهل مكة المكرمة

أورد ابن بطوطة فيما سبق بعض العادات والتقاليد الفاضلة وحسن الكرم ورعاية الأيتام التي يتصف بها أهل مكة. ثم أضاف عادات وتقاليد أخرى منها أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية «وهو المقدم من قبل أولى الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل عليه السلام... وجمهور الناس بمكة على مذهبه»[1] وإذا صلى إمام الشافعية، صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني. أما إمام الحنابلة فيصلي معه في وقت واحد. ثم يصلي إمام الحنفية. ويوضع بين يدي الأئمة في محاربهم الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، باستثناء صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد.

أشار ابن بطوطة إلى أن كل إمام يصلي بطائفته، مما يدخل على الناس السهو والخلط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي.

وفي يوم الجمعة يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي. ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم، فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوباً أسود، ومعمماً بعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود، كل ذلك من كسوة الملك الناصر. ومن عادة الخطيب أن يقبل الحجر الأسود ويدعو عنده، ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي، وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابساً السواد وعلى عاتقه السيف ممسكاً بيده. فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين، ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالث

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٧٩.

أخرى. ثم إذا استوى في الدرج الرابع ضرب ضربة رابعة، وهتف داعياً بدعاء خفي مستقبلاً الكعبة. ولما يبدأ الخطيب خطبته يخطب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي محمد ﷺ ويترضى على الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن آل ومحمد وصحبه. ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود، ثم للسيدين الشريفين الحسنين أميري مكة. وقد دعا لسلطان العراق مرة، ثم قطع ذلك.

ومن عادات أهل مكة في استهلال الشهور أن يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر وقادته في صحبته يحفون به، وهو لابس البياض معتماً متقلداً سيفاً، وعليه السكينة والوقار. فيصلي عند المقام الكبير ركعتين، ثم يقبل الحجر، ويشرع في الطواف. وعندما يكمل أمير مكة شوطاً واحداً ويقصد الحجر لتقبيله، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعاً بذلك صوته.

وإذا قدم هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعاراً بدخول الشهر. ثم يخرج في أول يوم منه راكباً، ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً مع أسلحتهم والرايات والطبول والدبادب، فيصلون في المسجد الحرام. ويعتبر هذا اليوم عند أهل مكة بمثابة الأعياد، يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك. ويحتفل أهل مكة بعمرة رجب احتفالاً مهيباً، يمتد ليلاً نهاراً، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة. وأشار ابن بطوطة إلى أنه شاهد في ليلة السابع والعشرين منه شوارع مكة وقد غصت بالهوادج وعليها كساء الحرير والكتان الرفيع، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير وعلى جانبي الطرقات نيران مشتعلة، والشمع والمشاعل أمام الهوادج، والجبال تجيب بصداها أصوات المهللين، فترق النفوس وتنصهل الدموع. وبعد قضاء العمرة والطواف بالبيت الحرام، يخرج أهل مكة للسعي بين الصفا والمروة. أما أهل البلاد الموالية لمكة المكرمة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الأسعار فيها.

أما ليلة النصف من شعبان فهي من الليالي المعظمة عند أهل مكة، يبادرون فيها إلى أعمال البر، والصلاة جماعات وإفراداً. ويجتمعون في

المسجد الحرام جماعات، ويصلون مائة ركعة، يقرأون في كل ركعة آيات من القرآن الكريم فيها سورة الإخلاص. وإذا أهل هلال رمضان المبارك يضرب أهل مكة الطبول والدبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر والإكثار من الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نوراً ويسطع بهجة وإشراقاً. ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قاريء يصلي بجماعة[1]. وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور. وفي ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن الكريم، ويحضر الختم القاضي والفقهاء وكبار القوم.

وأضاف ابن بطوطة بأن أعظم ليالي رمضان المبارك عند أهل مكة ليلة السابع والعشرون واحتفالهم بها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي، ويختم بها القرآن الكريم.

أما عادة أهل مكة المكرمة في شهر شوال، فقد أشار ابن بطوطة، بأنه هو مفتتح أشهر الحج، وفيه توقد المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع على نحو ما يفعلون في ليلة السابع والعشرين من رمضان. ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى جبل أبي قبيس. ويقيم المؤذنون ليلتهم في تهليل وتكبير وتسبيح، والمسلمون ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء. فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا يستعدون لصلاة العيد، فيلبسون أحسن ثيابهم، ويبادرون لأخذ مجالسهم في الحرم الشريف الذي يصلون فيه صلاة العيد. ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبيون، فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويجلس كبيرهم في عتبتها وسائرهم بين يديه إلى أن يأتي أمير مكة، فيستقبلونه، ويطوف في البيت الحرام أسبوعاً، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم كالعادة، رافعاً صوته بالثناء عليه، والدعاء له ولأخيه. ثم يأتي الخطيب ويلقي خطبة العيد. وبعد الصلاة والخطبة، يقصد الناس الكعبة المشرفة فيدخلونها أفواجاً. ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلي تبركاً بمن فيها من الصحابة والسلف الصالح.

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٨٤.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع، ويسمون ذلك «إحرام الكعبة» وهو يوم مشهود بالحرم الشريف، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى انقضاء الوقفة بعرفة. وإذا كان أول يوم من شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدبادب في أوقات الصلوات بكرة وعشية إشعاراً بالموسم المبارك، ويستمر هذا الأمر إلى يوم الصعود إلى عرفات. وفي اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة، يعلم الناس فيها مناسكهم، ويعلمهم بيوم «الوقفة». فإذا كان اليوم الثامن بكّر الناس بالصعود إلى منى. وأشار ابن بطوطة إلى أن أمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى «وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع»[1] وأكد ابن بطوطة إلى أن الفضل دائماً في هذا المضمار هو لأهل الشام. أما اليوم التاسع من ذي الحجة فإن الناس يرحلون من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة، فيمرون في طريقهم بوادي محسر[2] ويهرولون.

وبعد أن عدّد ابن ببطوطة مواقع المزدلفة ومنى وعرفة وجبل الرحمة ومواقع أخرى، أشار إلى أنه إذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكي بيده ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال «فيا له موقفاً كريماً ومشهداً عظيماً، ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الأمال إلى نفحات رحماه». وأضاف ابن بطوطة بأن وقفته الأولى كانت يوم الخميس سنة ست وعشرين وسبعمائة ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م.

وفي هذه السنة من الحج كان أمير قافلة الحج المصري أرغون الدوادار نائب الملك الناصر، كما أدت مناسك الحج ابنة الملك الناصر زوجة أبي بكر بن أرغون الدوادار، كما أدت مناسك الحج في هذه السنة زوجة الملك الناصر المسماة «خونده»، وهي ابنة السلطان محمد أوزبك ملك السرا وخوارزم. أما أمير قافلة الحج الشامي فقد كان سيف الدين الجوبان. ثم تحدث ابن بطوطة عن كيفية تأديته لمناسك الحج، ووصوله إلى مزدلفة وحمله للحصى منها،

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٨٦.

(٢) وادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى.

لأنه عمل مستحب. ثم يتجه إلى منى حيث بادر الناس إلى رمي جمرة العقبة، «ثم نحروا وذبحوا، ثم خلقوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة. ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر...»[1].

وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع من الحصى، وبالوسطى كذلك، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء لأمر رسول الله ﷺ. ولما كان اليوم الثالث تعجل الحجاج الانحدار إلى مكة المكرمة شرفها الله، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة. وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة.

وفي يوم النحر أوضح ابن بطوطة مشاهداته بأنه بُعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه. فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في إسبالها على الكعبة الشريفة، وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض، **﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾**[2] وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن الكريم، وعليها نور لائح مشرق من سوادها. ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس.

وأوضح ابن بطوطة بأن الملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة المشرفة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والقائمين عليها. وما يحتاج إليه الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. وفي هذه الفترة تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي. وهم يقيمون بمكة المكرمة أربعة أيام بعد سفر قافلة الحج الشامي وقافلة الحج المصري، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم، بما فيه الصدقات من الذهب والفضة. ثم ختم ابن

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ١٨٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

بطوطة حجه ورحلته إلى مكة المكرمة في العشرين من ذي الحجة، حيث خرج منها بصحبة أمير قافلة الحج العراقي البهلوان محمد الحويح ومنها كانت رحلته إلى بغداد وبلاد فارس.

لم يكتف ابن بطوطة بتأدية مناسك الحج لمرة واحدة، بل حج مرة ثانية ورجع إلى مكة المكرمة ووقف بعرفات يوم الاثنين عام ٧٢٧ هـ. وأقام بمكة المكرمة بعد أن حج مرة ثالثة ومرة رابعة في عامي ٧٢٨ هـ و ٧٢٩ هـ.

وكان قد عاد للمرة الثانية إلى مكة المكرمة من بغداد مع قافلة الحج العراقي، فتحدث عن مشاهداته وعن وصول جماعة من كبار الحجاج المصريين ومن الأمراء المماليك.

وبعد أن حج ابن بطوطة أقام فترة بمكة المكرمة. وقال في هذا الصدد «ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين. وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصري»[١] ثم خرج ابن بطوطة من مكة قاصداً اليمن. وبعد أن طاف في عدن ومدن اليمن وظفار وعمان وهرمز والبحرين والقطيف واليمامة متجولاً في مدن وبلدات عديدة عاد مجدداً إلى مكة المكرمة عام ٧٣٢ هـ بهدف الحج وقد حج في هذه السنة الملك الناصر سلطان مصر وجملة من أمرائه، وهي آخر حجة حجها[٢].

بعد ذلك توجه ابن بطوطة إلى مصر والشام ثم إلى بلاد الروم (تركيا اليوم)، وزار بلاد القرم ومناطق القولغا والبلغار والقوقاز وخوارزم، ومدن إسلامية عديدة مثل: سمرقند وبخارى وترمذ وسواها، وهي تقع اليوم في أفغانستان وشرق إيران. ثم سافر عن طريق كابل (كابول) وغزنة إلى بلاد الهند. وأقام ابن بطوطة في الهند سنين عند سلطانها «محمد بن تغلق» في العاصمة دهلي (دلهي) الذي عينه قاضياً للمذهب المالكي ثم غضب عليه وبعث به بسفارة إلى ملك الصين عام ٧٤٣ هـ. وفي طريقه إلى الصين زار أواسط الهند وساحل المليبار وجزر ذيبة المهل (جزر مالديف) وجزر سرنديب (سيلان)، ثم زار سومطرة، وبكين في الصين.

(١) انظر: ابن بطوطة: الرحلة، جـ ١، ص ٢٦٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٣٠٦.

في عام ٧٤٦ هـ قرر العودة إلى بلاده طنجة، فمر على سومطرة، والمليبار والخليج العربي، وبغداد ودمشق ومصر. غير أنه لم يتوجه إلى بلاده قبل تأدية مناسك الحج للمرة السادسة والأخيرة عام ٧٤٩ هـ. وبعد أداء فريضة الحج سافر ابن بطوطة إلى بيت المقدس ومدينة الخليل وغزة، ثم توجه إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية، فركب البحر إلى تونس «في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة، وذلك في صفر سنة خمسين [وسبعمائة]»[١] ومنها إلى جزيرة سردينيا في إيطاليا، فمدينة تنس فالجزائر. ثم سافر براً إلى مدينة فاس عاصمة المغرب، بعد أن غاب عن وطنه المغرب خمساً وعشرين عاماً. غير أن ذلك لا يعني توقفه عن الرحلات، بل رحل فيما بعد إلى مناطق إسلامية أخرى مثل الأندلس وجبل طارق وغرناطة ومالقة والصحراء الكبرى وضفاف نهر النيجر ومالي وسواها.

والواقع فإن رحلة ابن بطوطة من أهم الرحلات في العصور الوسطى سواء على صعيد البلدان عامة أم على صعيد مكة المكرمة. وقد أفادنا بمعلومات دينية وسياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وهي من المعلومات الهامة والنادرة. من هنا أهمية الرحلة التي لم تفدنا بمعلومات جغرافية فحسب، وإنما بمعلومات هامة أخرى أشرنا إليها. ولا شك بأن رحلة ابن بطوطة هي موسوعة علمية لا يمكن الاستغناء عنها.

(١) ابن بطوطة: الرحلة، جـ ٢، ص ٧٥٤.

نص رحلة
ابن بطوطة
إلى مكة المكرمة

من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة

وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفهما الله تعالى. فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم منه رسول الله ﷺ، والمدينة منه على خمسة أميال، وهو منتهى حرم المدينة. وبالقرب منه وادي العقيق، وهناك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت، ولبست ثوب إحرامي وصليت ركعتين وأحرمت بالحج مفرداً.

ولم أزل في كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن أتيت شعب علي عليه السلام، وبه نزلت تلك الليلة.

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم، ويقال إن علياً عليه السلام قاتل بها الجن.

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء. وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم. وفيها حصن كبير، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة.

ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ، وأنجز وعده الكريم، واستأصل صناديد المشركين. وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة، وبها حصن منيع يدخل إليها من بطن واد بين جبال ووهاد. وببدر عين فوارة يجري ماؤها. وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان، وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه. وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء، وبإزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد. ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة. وموضع عريش رسول الله ﷺ الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول، وموضع الواقعة أمامه. وعند

نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة رسول الله ﷺ. وبين بدر الصفراء نحو بريد، في واد بين جبال تطرف فيه العيون وتتصل حدائق النخل.

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة ببقاع البزواء. وهي برية يضل بها الدليل، ويدهل عن خليله الخليل.

مسيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابغ، يتكون فيه المطر غدران، يبقى بها الماء زماناً طويلاً. ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب، وهو دون الجحفة.

وسرنا من رابع ثلاثاً إلى خليص، ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل. والحجاج يقصدون شرب السويق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلط بالسكر. والأمراء يملؤن منه الأحواض ويسقونها الناس. ويذكرون أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام، فأخذ من رملها فأعطاهم إياه فشربوه سويقاً.

ثم نزلنا بركة خليص، وهي في بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل. لها حصن مشيد في قنة جبل، وفي البسيط حصن خرب، بها عين فوارة، صنعت لها أخاديد في الأرض سربت إلى الضياع. صاحب خليص شريف حسني النسب. عرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة، يجلبون إليها الغنم والتمر والادام.

ثم رحلنا إلى عسفان. هي في بسيط من الأرض بين جبال، بهار آبار ماء معين تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه. المدرج المنسوب إلى عثمان أيضاً على مسافة نصف يوم من خليص، هو مضيق بين جبلين، وفي موضع منه بلاط على صورة درج أثر عمارة قديمة. هنالك بئر تنسب إلى النبي عليه السلام، ويقال إنه أحدثها. بعسفان حصن عتيق، وبرج مشيد قد أوهنه الخراب، وبه من شجر المقل كثير.

ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر، ويسمى أيضاً مر الظهران. وهو واد مخصب كثير النخل، ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية. ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى. ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها.

١٠ قدم

مخطط الحرم الشريف في مكة المكرمة

مكة المكرمة والحرم الشريف

فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى. فوردنا منها على حرم الله تعالى، ومبوأ خليله إبراهيم، ومبعث صفيه محمد ﷺ. ودخلنا البيت الحرام الشريف، الذي من دخله كان آمناً، من باب بني شيبة. وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيماً، وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان. وطفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحجر الكريم، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الأسود حيث يستجاب الدعاء. وشربنا من ماء زمزم، وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبي ﷺ تسليماً. ثم سعينا بين الصفا والمروة. ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب إبراهيم. والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم، وجعلنا ممن بلغنا دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم.

ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكناً في القلوب، فلا يحلها أحد إلاّ أخذت بمجاميع قلبه، ولا يفارقها إلاّ أسفاً لفراقها، متولهاً لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة عليها. فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب، حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام. والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقى من المشاق، ويعانيه من العناء. وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله، تلقاها مسروراً مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصباً. أنه لأمر إلهي وصنع رباني، ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها

شبهة ولا يطرقها تمويه، وتعز في بصيرة المستبصرين، وتبدو في فكرة المتفكرين. ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوله خير الدارين الدنيا والآخرى، فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوله، ويديم الحمد على ما أولاه. جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته، وربحت في قصدها تجارته، وكتبت في سبيل الله آثاره، ومحيت بالقبول أوزاره، بمنّه وكرمه.

ومكة المعظمة هي مدينة كبيرة، متصلة البنيان، مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ. والأخشبان من جبالها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منها، وجبل قعيقعان وهو في الجهة الغربية منها. وفي الشمال منها الجبل الأحمر. ومن جهة أبي قبيس أجياد الأكبر وأجياد الأصغر وهما شعبان، والخندمة وهي جبل وسيذكر. والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة بشرقي مكة شرفها الله. ولمكة من الأبواب ثلاثة: باب المعلي بأعلاها؛ وباب الشبيكة من أسفلها، ويعرف أيضاً بباب العمرة، وهو إلى جهة المغرب، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه إلى التنعيم، وسيذكر ذلك؛ وباب المسفل، وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح. ومكة شرفها الله كما أخبر الله في كتابه العزيز، حاكياً عن نبيه الخليل، بواد غير ذي زرع. ولكن سبقت لها الدعوة المباركة، فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجبى لها. ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة. واللحوم بها سمان، لذيذات الطعوم. وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه. وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر، ولطفاً من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق.

والمسجد الحرام في وسط البلد. وهو متسع الساحة، طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع، حكى ذلك الأزرقي، وعرضه يقرب من ذلك. والكعبة العظمى في وسطه. ومنظره بديع، ومرآه جميل، لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف كماله. وارتفاع حيطانه نحو عشرين

ذراع. وسقفه على أعمدة طوال، مصطفة ثلاثة صفوف، بأتقن صناعة وأجملها. وقد انتظمت بلاطاته الثلاث انتظاماً عجيباً كأنها بلاط واحد. وعدد سواريه الرخامية أربعمائة وإحدى وتسعون سارية، ما عدا الحصية التي في دار الندوة المزيدة في الحرم. وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال، ويقابلها المقام مع الركن العراقي، وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط إليه. ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا، يجلس بها المقرءون والنساخون والخياطون. وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها، وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا. وعند باب إبراهيم مدخل من البلاد الغربي فيه سواري حصية وللخليفة المهدي بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه. وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب: «أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة».

والكعبة ماثلة في وسط المسجد. وهي بنية مربعة، ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذارعاً. ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً. وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي. وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي، من داخل الحجر، ثمانية وأربعون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن العراقي. وأما خارج الحجر، فإنه مائة وعشرون شبراً، والطواف إنما هو خارج الحجر. وبناؤها بالحجارة الصم السمر، قد ألصقت بأبدع الألصاق وأحكمه وأشده، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان. وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار. وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم، حيث يستجاب الدعاء. وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار. وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبه العليا مصفحات بالفضة. وله نقارتان كبيرتان من فضة، عليهما قفل.

ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة. ويفتح في يوم مولد

النبي ﷺ. ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسياً شبه المنبر، له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متصلاً بالعتبة الكريمة. ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم، ومعه السدنة. فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، خلال ما يفتح رئيسهم الباب. فإذا فتحه قبَّل العتبة الشريفة، ودخل البيت وحده، وسد الباب، وأقام قدر ما يركع ركعتين. ثم يدخل سائر الشيبيين، ويسدون الباب أيضاً ويركعون. ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول. وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة، وقلوب ضارعة، وأيد مبسوطة إلى الله، فإذا فتح، كبروا ونادوا: «اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين». وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كذلك. وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى. وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين اليماني والشامي.

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض، وهي تتلألأ عليها نوراً وإشراقاً. وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمة لا يحصيها إلاّ الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم. ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير لا ينزل عليها، ولا يعلوها في الطيران. وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلوها. ويقال لا ينزل عليها طائر إلاّ إذا كان به مرض، فأما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه. فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم، وجعل لها المهابة والتعظيم.

والميزاب في أعلى الصفح الذي يلي الحجر، وهو من الذهب وسعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين. والموضع الذي تحت الميزاب في الحجر هو قبر إسماعيل عليه السلام، وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة. وكلتاهما سعتها مقدار شبر، وكلتاهما

غريبة الشكل رائقة المنظر، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار.

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار. فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والصغير يتطاول إليه، وهو ملصق في الركن الذي في جهة المشرق. وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقدة، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن. وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال أن القرمطي لعنه الله كسره. وقيل أن الذي كسره سواه، ضربه بدبوس فكسره، وتبادر الناس إلى قتله، وقتل بسببه جماعة من المغاربة. وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتنجلي منه العيون حسناً باهراً. ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم، ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه، خاصية مودعة فيه وعناية به. وكفى قول النبي ﷺ: «إنه يمين الله في أرضه». نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيق إليه. وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود، مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه، نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصحيفة البهية. وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض إزدحاماً على تقبيله. فقلما يتمكن أحد من ذلك إلاّ بعد المزاحمة الشديدة. وكذلك يصنعون عند دخول الحرم. ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف، وهو أوّل الأركان التي يلقاها الطائف، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلاً، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره، ومضى في طوافه. ثم يلقى بعده الركن العراقي، وهو إلى جهة الشمال. ثم يلقى الركن الشامي، وهو إلى جهة الغرب. ثم يلقى الركن اليماني، وهو إلى جهة الجنوب. ثم يعود إلى الحجر الأسود، وهو إلى جهة الشرق.

إِعلم أن بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعاً طوله اثنا عشر شبراً، وعرضه نحو النصف من ذلك، وارتفاعه نحو شبرين. وهو موضع المقام في مدة إبراهيم عليه السلام. ثم صرفه النبي ﷺ إلى الموضع الذي هو الآن مصلى. وبقي ذلك الموضع شبه الحوض، وإليه ينصب ماء البيت الحرام إذا غسل. وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه. وموضع المقام الشريف يقابل ما بين الركن العراقي والباب الشريف، وهو إلى الباب أميل. وعليه قبلة تحتها شباك حديد، متجاف عن المقام الشريف قدر ما تصل أصابع

الإنسان إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق. والشباك مقفل، ومن ورائه موضع محور، قد جعل مصلى لركعتي الطواف. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى البيت، فطاف به سبعاً، ثم أتى المقام فقرأ: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»، وركع خلفه ركعتين. وخلف المقام مصلى إمام الشافعية في الحطيم الذي هنالك.

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وتسعون شبراً من داخل الدائرة. وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق. وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصب شبر. وداخل الحجر بلاط واسع، مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان. وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبراً. وللحجر مدخلان، أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع، وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح، والمدخل الآخر عند الركن الشامي وسعته أيضاً ستة أذرع. وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبراً. وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطئ، إلاّ في الجهة التي تقابل المقام الشريف فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به. وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض. وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة.

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود، وبينهما أربع وعشرون خطوة. والمقام الشريف عن يمين القبة، ومن ركنها إليه عشر خطى. وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض. وتنور البئر المباركة في وسط القبة، مائلاً إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة، وهو من الرخام البديع الإلصاق، مفروغ بالرصاص، ودوره أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر. وعمق البئر إحدى عشرة قامة. وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة. وباب القبة إلى جهة الشرق. وقد استدارت بداخله سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء.

ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه.

وبابها جهة الشمال. وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق. وكل دورق له مقبض واحد. وتترك بها ليرد فيها الماء فيشربه الناس. وبها اختزان المصاحف الشريفة والكتب التي للحرم الشريف. وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه، منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله ﷺ تسليماً. وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة، أخرجوا هذا المصحف الشريف وفتحوا باب الكعبة، ووضعوه على العتبة الشريفة، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم، داعين متضرعين، متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف. فلا ينفصلون إلاّ وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم بلطفه ويلي قبة العباس رضي الله تعالى عنه، على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية.

وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر باباً، وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة. فمنها باب الصفا، وهو مفتح على خمسة أبواب، وكان قديماً يعرف بباب بني مخزوم. وهو أكبر أبوب المسجد، ومنه يخرج إلى المسعى. ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبة، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا، جاعلاً طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله علماً على طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا. ومنها باب أجياد الأصغر، مفتح على بابين. ومنها باب الخياطين، مفتح على بابين. ومنها باب العباس رضي الله عنه، مفتح على ثلاثة أبواب. ومنها باب النبي ﷺ، مفتح على بابين. ومنها باب بني شيبة، وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال، أمام باب الكعبة الشريفة متياسراً، وهو مفتح ثلاثة أبواب. وهو باب بني عبد شمس، ومنه كان دخول الخلفاء. ومنها باب صغير إزاء باب بني شيبة لا اسم له، وقيل يسمى باب الرباط لأنه يدخل منه لرباط السدرة. ومنها باب الندوة. ويسمى بذلك ثلاثة أبواب، اثنان منتظمان، والثالث في الركن الغربي من دار الندوة. ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعاً في الحرام مضافاً إليه، وهي تقابل الميزاب. ومنها باب صغير لدار العجلة محدث. ومنها باب السدرة واحد، وباب المرة واحد، وهو من أجمل أبواب الحرم، وباب إبراهيم واحد، والناس مختلفون في نسبته، فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، والصحيح أنه منسوب

إلى إبراهيم الخوزي من الأعاجم، وباب الحزوة مفتح على بابين، وباب ثالث ينسب إليه مفتح على بابين ويتصل لباب الصفا، ومن الناس من ينسب البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد إلى الدقاقين.

وصوامع المسجد الحرام خمس، إحداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا، والأخرى على ركن باب بني شيبة، والثالثة على باب دار الندوة، والرابعة على ركن باب السدرة. والخامسة على ركن أجياد.

وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب إليه الدراهم المظفرية باليمن. وهو كان يكسو الكعبة، إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون. وبخارج باب إبراهيم زاوية كبيرة. فيها دار إمام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل. وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو، قد صنع في داخلها غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف. وبإزاء هذا الباب، عن يمين الداخل إليه، كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهري. وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبته. وعنده أيضاً دار الشيخ الصالح دانيال العجمي، الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتي على يديه. وبمقربة منه رباط الموفق، وهو من أحسن الرباطات. سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة. وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح الطيار سعادة الجراني. ودخل يوماً إلى بيته بعد صلاة العصر، فوجد ساجداً مستقبل الكعبة الشريفة ميتاً من غير مرض كان به رضي الله عنه. وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحو من أربعين سنة، وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين. دخلت عليه يوماً فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير، فقلت له في ذلك، فقال لي: «استر على ما رأيت».

وحول الحرم الشريف دور كثيرة، لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم. وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام. ودور لها أبواب تفضي إلى الحرم، منها دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين، ومنها دار العجلة، ودار الشرابي، وسواها.

ومن المشاهد المقدسة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي. وهي في

دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، بمقربة من باب الرسول ﷺ. وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام. وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويقابلها جدار مبارك، فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس، ويقال أنه كان يسلم على النبي ﷺ. ويذكر أن النبي ﷺ سأل عن رجل فنطق ذلك الحجر، وقال: «يا رسول الله إنه ليس بحاضر»!.

ومن باب الصفا، الذي هو من أبواب المسجد الحرام، إلى الصفا ست وسبعون خطوة. وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة، علياهن كأنها مسطبة. وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة. منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحد كبير. وسعة المروة سبع عشرة خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء، مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم، عن يسار الساعي إلى المروة. والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علي، من أبواب الحرم، أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها. وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً. وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه. والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة. وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه، إلاّ البزازون والعطارون عند باب شيبة. وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه. وهي الآن رباط يقطنه المجاورون، عمره الملك الناصر رحمه الله. وبنى أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور، والآخر في العطارين، وعليها ربع يسكنه خدامها. وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال. وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف عطيفة بن أبي نمي، وسنذكره.

مكة المكرمة ووجهاؤها

وجبانة مكة خارجة باب المعلي، ويعرف ذلك الموضع بالحجون، وإياه عني الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء. إلاّ أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها، فلا يعرف منها إلاّ القليل. فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي ﷺ كلهم ما عدا إبراهيم. وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي ﷺ عليهم أجمعين. وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين. وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم بالزبير من اللعن. وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال إنه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله ﷺ. وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات، وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق.

من بعض المشاهد خارج مكة الحجون وقد ذكرناه. ويقال أن الحجون هو الحبل المطل على الجبانة. ومنها المحصب، وهو أيضاً الأبطح، وهو يلي الجبانة المذكورة، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله ﷺ.

ومنها ذو طوى، وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزاً بين الحل والحرم. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا قدم إلى مكة شرفها الله تعالى ببيت ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة. ويذكر أن رسول الله ﷺ فعل ذلك.

ومنها ثنية كُدى وهي بأعلى مكة، ومنها دخل رسول الله ﷺ في حجة الوداع إلى مكة. ومنها ثنية كَداء ويقال لها الثنية البيضاء، وهي بأسفل مكة. ومنها خرج رسول الله ﷺ عام الوداع. وهي بين جبلين، وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق، وكل من يمر يرجمه بحجر. ويقال إنه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب. وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا حدروا عن منى. وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بإزائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة، يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه. يقال أن النبي ﷺ قعد بذلك الموضع مستريحاً عند مجيئه من عمرته. فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون إليه.

ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة، ومنه يعتبر أهل مكة، وهو أدنى الحل إلى الحرم. ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله ﷺ في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه، وأمره أن يعمرها من التنعيم. وبنت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها. وطريق التنعيم طريق فسيح، والناس يتحرون كنسه في كل يوم رغبة في الأجر والثواب لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافياً. وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة.

ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم. وهو موضع على جانبي الطريق، فيه أثر دور وبساتين وأسواق. وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيسان الشرب وأواني الوضوء، يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر، وهي بعيدة القعر جداً. والخديم من الفقراء المجاورين، وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر.

ومن الجبال المطيفة بمكة جبل أبي قبيس، وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله. وهو أحد الأخشبين، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله، ويقابل ركن الحجر الأسود، وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة. وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره. وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد. ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله، وجمال الحرم واتساعه، والكعبة المعظمة. وذكر أن جبل أبي قبيس هو أوّل جبل خلقه الله تعالى. وقد

استودع فيه الحجر زمان الطوفان. وكانت قريش تسميه الأمين، لأنه أدى الحجر الذي استودعه فيه الخليل إبراهيم عليه السلام. ويقال أن قبر آدم عليه السلام به. وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي ﷺ حين انشق له القمر.

ومنها قعيقعان وهو أحد الأخشبين. ومنها الجبل الأحمر وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله.

ومنها الخندمة، وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر.

ومنها جبل الطير، وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم. يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها، حسبما نص الله في كتاب العزيز. عليه أعلام من حجارة.

ومنها جبل حراء، وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها. وهو مشرف على منى، ذاهب في الهواء عالي القمة. وكان رسول الله ﷺ يتعبد فيه كثيراً قبل المبعث. وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحي. وهو الذي اهتز تحت رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «اثبت فما عليك إلاّ نبي وصديق وشهيد». وأختلف فيمن كان معه يومئذ، وروي أن العشرة كانوا معه. وقد روي أيضاً أن جبل ثبير اهتز تحته أيضاً.

ومنها جبل ثور، وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن. وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله ﷺ حين خروجه مهاجراً من مكة شرفها الله، ومعه الصديق رضي الله عنه، حسبما ورد في الكتاب العزيز. ذكر الأزرقي في كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله ﷺ وقال: «إلي يا محمد! إلي إلي! فقد آويت قبلك سبعين نبياً». فلما دخل رسول الله ﷺ الغار واطمأن به، وصاحبه الصديق معه. نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار، وصنعت الحمامة عشاً وفرخت فيه بإذن الله تعالى. فأنتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى الغار، فقالوا: «ها هنا انقطع الأثر». ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار، والحمام مفرخة، فقالوا: «ما دخل أحد هنا»، وانصرفوا: فقال الصديق: «يا رسول الله لو ولجوا علينا منه». قال «كنا نخرج من هنا». وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر، ولم يكن فيه باب، فانفتح

فيه باب بمقدرة الملك الوهاب. والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك، فيرومون دخوله من الباب الذي دخل منه النبي ﷺ، تبركاً بذلك. فمنهم من يتأتي له، ومنهم من لا يتأتى وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف. ومن الناس من يصل أمامه ولا يدخله. وأهل تلك البلاد يقولون إنه من كان لرشده دخله، ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله. ولهذا يتحاشاه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح. ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي، أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الإفريقي التوزري، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسي الوادي آشي، أنهما قصدا الغار في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وذهبا منفردين لم يستصحبهما دليلاً عارفاً بطريقه، فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقاً سواها منقطعة. وذلك في أوان اشتداد الحر وحمى القيظ. فلما نفد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا إلى الغار، أخذا في الرجوع إلى مكة شرفها الله تعالى. فوجدا طريقاً فاتبعاه، وكان يفضي إلى جبل آخر. واشتد بهما الحر، وأجهدهما العطش، وعاينا الهلاك. وعجز الفقيه أبو محمد عبد الله بن فرحان عن المشي جملة، وألقى بنفسه إلى الأرض. ونجا الأندلسي بنفسه، وكان فيه فضل قوة. ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياد. فدخل إلى مكة شرفها الله تعالى، وقصدني وأعلمني بهذه الحادثة، وبما كان من أمر عبد الله التوزري وانقطاعه في الجبل، وكان ذلك في آخر النهار. ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن، وهو من سكان وادي نخلة. وكان إذ ذاك بمكة، فأعلمته بما جرى على ابن عمه. وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفع الله به، فأعلمته بخبره. فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه. وكان من أمر عبد الله التوزري أنه لما فارقه رفيقه، لجأ إلى حجر كبير فاستظل بظله، وأقام على تلك الحالة من الجهد والعطش، والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته. فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد في نفسه قوة، ونعشه برد الليل، فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس. فلم يزل ماشياً إلى أن بدت له دابة فقصد قصدها، فوجد خيمة للعرب. فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض. فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء، فسقته ما كان عندها من الماء

فلم يرو. وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو، وأركبه حماراً له وقدم به مكة. فوصلها عند صلاة العصر من الثاني متغيراً كأنه قام من قبر.

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفين الأجلين الأخوين أسد الدين رميثه وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين. ولرميثة أكبرهما سناً، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله. ولرميثة من الأولاد محمد ومبارك ومسعود. ودار عطيفة عن يمين المروة. ودار أخيه رميثة برباط الشرابي، عند باب بني شيبة. وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم.

ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة، يبدأ فيها بالطعام للفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين، فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين. ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها، طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى، وهم يمسون القفة مكتلاً، فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي. فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها. ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته. فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط. بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض. فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، وذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى أن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن،

وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً. ولأهل مكة عوائد حسنة وغيرة سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محيي الدين الطبري. وهو فاضل، كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، حسن الأخلاق، كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة. يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة، وخصوصاً في مولد رسول الله ﷺ، فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاوين. وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيراً. وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجري على يديه. وولده شهاب الدين فاضل، وهو الآن قاضي مكة شرفها الله.

وخطيب مكة الإمام بمقام إبراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري، وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان. وذكر لي أنه ينشيء لكل جمعة خطبة، ثم لا يكررها فيما بعد.

وإمام الموسم وإمام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن، وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه، وأهله من بلاد الجريد من أفريقية، ويعرفون بها ببني حيون، من كبارها. ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله. وهو أحد الكبار من أهل مكة، بل واحدها وقطبها بإجماع الطوائف على ذلك، مستغرق العبادة في جميع أوقاته، حيي، كريم النفس، حسن الأخلاق، كثير الشفقة، لا يرد من سأله خائباً. رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله، وأنا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية، النبي ﷺ في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس في المدرسة المذكورة، بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة، والناس يبايعونه. فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله ﷺ، وجعل يده في يد رسول الله ﷺ، وقال: «أبايعك على كذا وكذا»، وعدد أشياء منها «وأن لا أرد من بيتي مسكيناً خائباً»، وكان ذلك آخر كلامه. فكنت أعجب من قوله وأقواله، وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام. وكنت أراه حين ذكر لابساً

جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان، كان يلبسها في بعض الأوقات. فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياي. فسر بها وبكى، وقال لي: «تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي، فأنا ألبسها تبركاً». وما رأيته بعد ذلك يرد سائلاً خائباً. وكان يأمر خدامه أنه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به إليَّ بعد صلاة العصر من كل يوم. وأهل مكة لا يأكلون في اليوم إلاَّ مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت. ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر. ولذلك صحت أبادنهم، وقلت فيهم الأمراض والعاهات. وكان الشيخ خليل متزوجاً بنت القاضي نجم الدين الطبري، فشك في طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري، من كبار المجاورين، وهو من صعيد مصر. وأقامت عنده أعواماً، وسافر بها إلى المدينة الشريفة، ومعها أخوها شهاب الدين. فحنث في يمين الطلاق، ففارقها على ضنانته بها، وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة.

ومن أعلام مكة إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان. ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي، من كبار أئمة مكة وفضلائها. يطعم المجاورين وأبناء السبيل، وهو أكرم فقهاء مكة. ويدان في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفاً، فيؤديها الله عنه. وأمراء الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لأنه إمامهم.

ومنهم إمام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان، البغدادي الأصل، المكي المولد، وهو نائب القاضي نجم الدين، والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري. والناس يهابونه لسطوته. كان تقي الدين المصري محتسباً بمكة، وكان له دخول فيما يعنيه ولا يعنيه. فاتفق في بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعاة بمكة قد سرق بعض الحجاج، فأمر بقطع يده. فقال له تقي الدين: «إن لم تقطعها بحضرتك، وإلا غلب أهل مكة خدامك عليه، فاستنقذوه منهم وخلصوه». فأمر بقطع يده في حضرته. فقطعت، وحقدها لتقي الدين، ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه، لأن له حسباً من الأميرين رميثة وعطيفة. والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جواراً لمن أعطيته، ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة. فأقام تقي الدين بمكة أعواماً ثم عزم

على الرحلة، وودع الأميرين، وطاف طواف الوداع، وخرج من باب الصفا، فلقيه صاحب الأقطع، وتشكى له ضعف حاله، وطلب منه ما يستعين به على حاجته. فانتهره تقي الدين وزجره، فاستل خنجراً له يعرف عندهم بالجنبية، وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه.

ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين المذكور، من أهل الفضل والإحسان للمجاورين. ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي، من فضلاء مكة، وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي.

ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان، زاهد ورع مبتلي بالوساس. رأيته يوماً يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية، فيغسل ويكرر، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة. وكان إذا أراد الصلاة، ربما صلى الإمام الشافعي وهو يقول: «نويت نويت». فيصلي من غيره. وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر.

ومن المجاورين بمكة الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار. وكان إذا طاف من يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهداً للكعبة الشريفة إلى أن يغلبه النوم، فيجعل تحت رأسه حجراً وينام يسيراً. ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح. وكان متزوجاً ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان، وكانت صغيرة السن، فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر. فأقامت معه على ذلك سنين، ثم فارقته.

ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفوني، كان قاضياً ببلاد الصعيد، فانقطع إلى الله تعالى، وجاور بالحرم الشريف. وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم. ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم، اعتماداً على ما في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي».

ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي، كثير الطواف والتلاوة، من قدماء المجاورين. توفي بمكة. ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، كثير الطواف. أقام بمكة أعواماً لا يتكلم فيها.

ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ، كان ينصب له كرسي اتجاه الكعبة الشريفة، فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب. والصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري، مقريء مجيد ساكن رباط السدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنهم ويكسوهم. والصالح العابد عز الدين الواسطي، من أصحاب الأموال الطائلة. يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة، فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه. ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي. والفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري، من أهل قطر طنجة، من كبار الصالحين. جاور بمكة سنين، وبها وفاته. كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة، ومتى أتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا. وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهاراً، ويأوى بالليل إلى مسكنه برباط ربيع. وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخله بئر لا يماثلها بئر بمكة، وسكانه الصالحون. وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيماً شديداً، وينذرون له النذور. وأهل الطائف يأتونه بالفواكه، ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك ـ وهو الخوخ ـ والتين ـ وهم يسمونه الخمط ـ يخرج منه العشر لهذا الرباط، ويوصلون ذلك إليه على جمالهم. ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان. ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح. أتى يوماً غلمان الأمير أبي نمي صاحب مكة إلى هذا الرباط، ودخلوا بخيل الأمير، وسقوها من تلك البئر. فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع، وضربت بأنفسها الأرض برؤوسها وأرجلها. واتصل الخبر بالأمير أبي نمي، فأتى باب الرباط بنفسه، واعتذر إلى المساكين الساكنين به، واستصحب واحداً منهم فمسح على بطون الدواب بيده، فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها. ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلاّ بالخير.

ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري، من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله، وسكن رباط ربيع، ووفاته بمكة. ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف، من بادية سبتة. كان خديماً للشيخين المذكورين، فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما. ومنهم الصالح السابح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني.

ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة. كان الشيخ سعيد قصد ملك الهند محمد شاه، فأعطاه مالاً عظيماً قدم به مكة. فسجنه الأمير عطيفة وطلبه بأداء المال، فامتنع. فعذب بعصر رجليه. فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة، وعاد إلى بلاد الهند، ورأيته بها. ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهنى، أمير عرب الشام. وكان غدا ساكناً ببلاد الهند، متزوجاً بأخت ملكها، وسيذكر أمره. فأعطي ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال، وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الأمير غدا. وجهه الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه، ووجه معه أموالاً وتحفاً، منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته، وهي من الحرير الأزرق، مزركشة بالذهب، ومرصعة بالجوهر، بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها. وبعث معها خمسين ألف درهم، ليشتري له الخيل العتاق. فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل، واشتريا سلعاً بما عندهما من الأموال. فلما وصلا جزيرة سقطرة، المنسوب إليها الصبر السقطري، خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة. فقاتلوهم قتالاً شديداً، مات فيه من الفريقين جملة. وكان وشل رامياً، فقتل منهم جماعة، ثم تغلب السراق عليهم، وطعنوا وشلاً طعنة مات منها بعد ذلك. وأخذوا ما كان عندهم، وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده. فذهبوا إلى عدن، ومات بها وشل. وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحداً إلاً حين القتال ولا يغرقونه، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء، ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم.

وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه، مثل السلطان شمس الدين لُلْمِش وولده ناصر الدين، ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين بلين، وكانت الخلع تأتي إليهم من بغداد. فلما توفي وشل، قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبي العباس بن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالأمر. فكتب له كتاباً بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند، فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن، واشترى بها ثلاث خلع سوداء وركب البحر إلى الهند. فلما وصل كنبايت، وهي على مسيرة أربعين يوماً من دهلي حضرة ملك الهند، كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد، وأن معه أمر الخليفة وكتابه. فورد الأمر ببعثه إلى الحضرة مكرماً. فلما قرب

من الحضرة، بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه، ثم خرج هو بنفسه لتلقيه. فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر، فقبله ووضعه على رأسه. ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع، فاحتمله الملك على كاهله خطوات، ولبس إحدى الخلع، وكسى الأخرى الأمير غياب الدين بن محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز الخليفة المنتصر العباسي، وكان مقيماً عنده، وسيذكر خبره، وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير، وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب. وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه، وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك، والسلطان أمامه على فرسه، وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين، والمدينة قد زينت بأنواع الزينة، صنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب، كل قبة منها أربع طبقات، في كل طبقة طائفة من المغنيين رجالاً ونساء والراقصات، وكلهم مماليك السلطان. والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها، وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد. وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة، فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد في حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام.

ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل، يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان. وانزل بدار تقرب من دار الملك، وبعث له أموالاً طائلة. وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب، والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود إلى السلطان، بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الأحواض وغيرهم، وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر، وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة. وأقام الشيخ سعيد شهراً، ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة. فوصل كنبايت، وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر. وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولاً إلى الخليفة، وهو الشيخ رجب البرقعي أحد شيوخ الصوفية، وأصله من مدينة القرم من صحراء قفجق. وبعث معه هدايا للخليفة، منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار. وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابه عنه ببلاد الهند

والسند، ويبعث له سواه من يظهر. هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة، وحسن نية. وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف. فلما وصل رجب إلى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية، إلاً بمحضر الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر. فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر، فباعه واشترى بثمنه، وهو ثلاثمائة ألف درهم، أربعة أحجار. وحضر بين يدي الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الأحجار، ودفع سائرها لأمرائه. واتفقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلب. فوجهوا الشهود إلى الخليفة، وأشهد على نفسه أنه قدمه نائباً عنه ببلاد الهند وما يليها. وبعث الملك الصالح رسولاً من قبله، وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي، ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية. وركبوا بحر فارس من الأبلة إلى هرمز، وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه. فأكرم مثواهم، وجهز لهم مركباً إلى بلاد الهند. فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها، وأميرها يومئذ مقبول التلتكي أحد خواص ملك الهند. فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له: «ن الشيخ سعيد إنما جاءكم بالتزوير والخلع التي ساقها إنما اشتراها بعدن فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم»، وهو السلطان. فقال له الأمير: «الشيخ سعيد معظم عند السلطان، فما يفعل به هذا إلاً بأمره، ولكني أبعثه معك ليرى فيه السلطان رأيه». وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان، وكتب به أيضاً صاحب الأخبار. فوقع في نفس السلطان، فتغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الإشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صدر. فمنع رجب من الدخول عليه وزاد إكرام الشيخ سعيد. ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام إليه وعانقه وأكرمه، وكان متى دخل عليه يقوم إليه. وبقي الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظماً مكرماً، وبها تركته سنة ثمان وأربعين.

وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون، وأمره غريب وشأنه عجيب. وكان قبل ذلك صحيح العقل خديماً لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته. كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل، وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً يكثر الطواف ولا يراه بالنهار. فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله، وقال: «يا حسن إن أمك تبكي عليك وهي مشتاقة إلى رؤيتك»، وكانت من إماء الله الصالحات، «أفتحب أن تراها؟». قال له: «نعم، ولكني

لا قدرة لي على ذلك». فقال له: «نجتمع ها هنا في الليلة المقبلة إن شاء الله تعالى!». فلما كانت الليلة المقبلة، وهي ليلة الجمعة، وجده حيث واعده، فطافا بالبيت ما شاء الله، ثم خرج وهو في أثره إلى باب المعلى. فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه، ففعل ذلك. ثم قال بعد ساعة: «أتعرف بلدك؟». قال: «نعم». قال: «ها هو هذا». ففتح عينيه، فإذا به على دار أمه. فدخل عليها ولم يعلمها بشيء مما جرى، وأقام عندها نصف شهر. وأظن أن بلده مدينة آسفى. ثم خرج إلى الجبانة فوجد الفقير صاحبه، فقال له: «كيف أنت؟». فقال: «يا سيدي إني اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين، وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الأيام، وأحب أن تردني إليه». فقال له: «نعم»، وواعده في الجبانة ليلاً. فلما وافاه بها أمره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله من تغميض عينيه والإمساك بذيله، ففعل ذلك. فإذا به في مكة شرفها الله. وأوصاه أن لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى، ولا يحدث به غيره. فلما دخل على نجم الدين قال له: «أين كنت يا حسن في غيبتك؟». فأبى أن يخبره، فعزم عليه فأخبره بالحكاية، فقال: «أرني الرجل!». فأتى معه ليلاً، وأتى الرجل على عادته، فلما مر بهما قال له: «يا سيدي هو هذا». فسمعه الرجل، فضرب بيده على فمه وقال: «اسكت أسكتك الله». فخرس لسانه وذهب عقله، وبقي بالحرم مولهاً يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة، والناس يتبركون به ويكسونه. وإذا جاع خرج إلى السوق التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتاً من الحوانيت فيأكل منها ما أحب، لا يصده أحد ولا يمنعه، بل يسر كل من أكل له شيئاً، وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه. ومتى أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم إليه، كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده لما جربوه من بركته. وكذلك فعله مع السقائين متى أحب أن يشرب. ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين، فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك، فاستصحبه معه إلى ديار مصر فانقطع خبره، نفعنا الله تعالى به.

مكة المكرمة وعادات أهلها

ومن عادة أهل مكة أن يصلي أوّل الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدم من قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، في حطيم له هنالك بديع. وجمهور الناس بمكة على مذهبه. والحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشبة خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيها قناديل زجاج.. فإذا صلى الإمام الشافعي، صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني. ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني. ثم يصلي إمام الحنفية قبالة الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك. ويوضع بين يدي الأئمة في محاربهم الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع. وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته. ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مصيغين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو.

وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم. فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد معتماً بعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود، كل ذلك من كسوة الملك الناصر، وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين. وبين يديه أحد القومة في يده الفرقعة، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول، ينقضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه، فيكون إعلاماً بخروج الخطيب. ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر.

فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده، ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابساً السواد وعلى عاتقه السيف ممسكاً بيده، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر. فإذا صعد أوّل درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين، ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى. فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة، وهتف داعياً بدعاء خفي مستقبل الكعبة. ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد عليه الناس، ثم يقعد. ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد. فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي ﷺ، ويقول في أثنائها: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف»، ويشير بإصبعه إلى البيت الكريم، «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف». ويترضى عن الخلفاء الأربعة، وعن سائر الصحابة، وعن النبي ﷺ وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام. ثم يدعو للملك الناصر، ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول، ثم للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الأخوين ويقدم اسمه لعدله، وأسد الدين رميثة، ابني أبي نمي بن أبي سعيد بن علي بن قتادة. وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك. فلما فرغ من خطبته انصرف والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقعة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة. ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكريم.

وعادتهم في استهلال الشهور أن يأتي أمير مكة في أوّل يوم من الشهر، وقواده يحفون به، وهو لابس البياض معتماً متقلداً سيفاً، وعليه السكينة والوقار. فيصلي عند المقام الكبير ركعتين، ثم يقبل الحجر. ويشرع في طواف أسبوع، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم، فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً ويقصد الحجر لتقبيله، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعاً بذلك صوته. ثم يذكر شعر في مدحه ومدح سلفه الكريم. ويفعل به هكذا في السبعة أشواط. فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين، ثم انصرف. ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفراً، وإذا قدم من سفر أيضاً.

وإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعاراً

بدخول الشهر. ثم يخرج في أوّل يوم منه راكباً، ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب. وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجال يتواثبون ويرمون بحربهم إلى الهواء ويلقفونها. والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن إبراهيم، وعلي وأحمد ابني صبيح، وعلي بن يوسف، وشداد بن عمر، وعامر الشرق، ومنصور بن عمر، وموسى المرزق، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب، وعليهم السكينة والوقار. ويصيرون حتى ينتهوا إلى الميقات. ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام. فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عادته. فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم، وصلى عند المقام وتمسح به، وخرج إلى المسعى راكباً والقواد يحفون به، والحرابة بين يديه. ثم يسير إلى منزله. وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد، يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك.

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله، وهي متصلة ليلاً نهاراً. وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة، وخصوصاً أوّل يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين، فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام. وشاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه، وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع، كل واحد يفعل بقدر استطاعته، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير، وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة. ويخرجون إلى ميقات التنعيم، فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج، والنيران مشعلة بجنبتي الطريق، والشمع والمشاعل أمام الهوادج. والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين، فترق النفوس، وتنهمل الدموع. فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت، خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل، والمسعى متقد السرج غاص بالناس، والساعيات على هوادجهن، والمسجد الحرام يتلألأ نوراً. وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية، لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضي الله عنها، بمقدار غلوة عن مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه. والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة، خرج ماشياً حافياً معتمراً ومعه أهل مكة، وذلك في اليوم السابع

والعشرين من رجب، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها، وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح. فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد. وكان عهد عبد الله مذكوراً أهدى فيه بدناً كبيرة، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم، وأقاموا أياماً يطعمون شكراً لله على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كانت عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه. ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها إلى بنائها في عهد قريش، وكانوا قد اقتصروا في بنائها، وأبقاها رسول الله ﷺ على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر. ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير، فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك، وقال: «يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم أن يغير فعل» فتركه على حالة سداً للذريعة.

وأهل البلاد الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز، فترخص الأسعار بمكة، ويرغد عيش أهلها، وتعم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش. ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم، ووقع الموت في مواشيهم. ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم، وظهرت فيها البركة، ونمت أموالهم. فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها، اجتمعت نساؤهم فأخرجتهم. وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين. وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواها من القبائل مخصبة، كثيرة الأعناب، وافرة الغلات، وأهلها فصحاء بالألسن، لهم صدق نية وحسن اعتقاد. وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة. فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم. ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر، لتزاحمهم على ذلك. وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود. وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم. ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم. وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً وقال: «علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء». وكفاهم شرفاً دخولهم في عموم قوله ﷺ: «الإيمان يمان والحكمة يمانية». وذكر أن عبد الله بن عمر

رضي الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم، ويدخل في جملتهم، تبركاً بدعائهم. وشأنهم عجيب كله. وقد جاء في أثر: «زاحموهم في الطواف، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً».

وليلة النصف من شعبان من الليالي المعظمة عند أهل مكة. يبادرون فيها إلى أعمال البر، من الطواف، والصلاة جماعات وأفراداً، والاعتمار. ويجتمعون في المسجد الحرام جماعات، لكل جماعة إمام، ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل. ويقابل ذلك ضوء القمر، فتتلألأ الأرض والسماء نوراً. ويصلون مائة ركعة، يقرأون في كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونها عشراً. وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار.

وإذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نوراً ويسطع بهجة وإشراقاً. وتتفرق الأئمة، وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية. وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة، ويوقدون الشمع. ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلاّ وفيها قارىء يصلي بجماعة. فيرتج المسجد لأصوات القراء، وترق النفوس، وتحصر القلوب، وتهمل الأعين. ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفرداً. والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً. وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف إمامهم وجماعته، فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة، كان ذلك إعلاماً بالعودة إلى الصلاة. ثم يصلي ركعتين، ثم يطوف أسبوعاً، وهكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى. ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً. وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور. وكذلك يفعل المؤذنين في سائر الصوامع، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه. وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض، قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان. فإذا قرب الفجر وقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة، وحط القنديلان، وابتدأ

المؤذنون بالآذان وأجاب بعضهم بعضاً. ولديار مكة شرفها الله سطوح، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الآذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر، حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل.

وفي ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن، ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء، ويكون الذي يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة. فإذا نصب له منبر مزين بالحرير، وأوقد الشمع، وخطب، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات. وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر. وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرون، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي. ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم، وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم، وتعرض بينها ألواح طوال، ويجعل ثلاث طبقات، وعليها الشمع وقنديل الزجاج، فيكاد يغشى الأبصار شعاع الأنوار. ويتقدم الإمام فيصلي فريضة العشاء الآخرة، ثم يبتدي قراءة سورة القدر، وإليها يكون انتهاء قراء الأئمة في الليلة التي قبلها. وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام. فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم، وانفض الجمع. ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر، وعن المباهاة منزه موقر، فيختم ويخطب.

وعادتهم في شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان. وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها. ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس. ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء. فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف، به يصلون صلاة العيد، لأنه لا يوجد موضع أفضل منه. ويكون أوّل من يبكر إلى المسجد الشيبيون، فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم في عتبتها وسائرهم بين يديه إلى أن يأتي أمير مكة. فيتلقونه، ويطوف بالبيت أسبوعاً، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعاً صوته بالثناء عليه، والدعاء له ولأخيه كما

ذكر. ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرقعة أمامه، وهو لابس السواد. فيصلي خلف المقام الكريم، ثم يصعد ويخطب خطبة بليغة. ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجاً. ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى تبركاً بمن فيها من الصحابة وصدور السلف، ثم ينصرفون.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة زادها الله تعظيماً إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع، صوناً لها من الأيدي أن تنتهبها. ويسمون ذلك إحرام الكعبة. وهو يوم مشهود بالحرم الشريف، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة.

وإذا كان في أوّل يوم شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدبادب في أوقات الصلوات بكرة وعشية، إشعاراً بالموسم المبارك. ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات. فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب أثر صلاة الظهر خطبة بليغة، يعلم الناس فيها مناسكهم، ويعلمهم بيوم الوقفة. فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى. وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى. وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع، ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائماً. فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة، فيمرون في طريقهم بوادي محسر ويهرولون، وذلك سُنَّة.

ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى. ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور، زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد. وبين منى وعرفة خمسة أميال. وكذلك بين منى ومكة أيضاً خمسة أميال. ولعرفة ثلاثة أسماء، وهي: عرفة، وجمع، والمشعر الحرام. وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح، تحدق به جبال كثيرة. وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة، وفيه الموقف وفيما حوله، والعلمان قبله بنحو ميل، وهما الحد ما بين الحل والحرم. وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه، ويجب التحفظ منه. ويجب أيضاً الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس. فإن الجمالين ربما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في

النفر، واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرفة، فيبطل حجهم. وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم بسيط جمع منقطع عن الجبال، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض. وفي أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنهما، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات، وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيها الناس. وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء، تنسب إلى آدم عليه السلام. وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي ﷺ عندها، وحول ذلك صهاريج وجباب للماء. وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الإمام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر. وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الأراك، وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتداداً طويلاً.

وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكي بيده ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال. فيا له موقفاً كريماً ومشهداً عظيماً، ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحماه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه. وكانت وقفتي الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين [وسبعمائة] وأمير الركب المصري يومئذ أرغونه الدوادار، نائب الملك الناصر. وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر، وهي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور. وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة، وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السرا وخوارزم. وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان. ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعاً بينهما حسبما جرت سنة رسول الله ﷺ. ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى، بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام. ومزدلفة كلها موقف إلاّ وادي محسر، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه. ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار، وذلك مستحب، ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف، والأمر في ذلك واسع.

ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمي جمرة العقبة، ثم نحروا وذبحوا، ثم حلقوا وحلوا من كل شيء إلاّ النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة. ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر. لما رموها توجه أكثر

الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة. ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني. وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات، وبالوسطى كذلك، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء لأمر رسول الله ﷺ. ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة. وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سعين حصاة. وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في اسبالها على الكعبة الشريفة. وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض: ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً**﴾، الآية[1]. وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها. ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس. والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي. وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم. ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، وكذلك يعطون للمشاهدين للكعبة الشريفة. وربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوق الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهماً نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب. وفي السنة هذه ذكروا اسم السلطان أبي العيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

مغادرة مكة المكرمة

وفي الموفى عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح، وهو من أهل الموصل وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر. وكان شهاب الدين شيخاً فاضلاً، عظيم الحرمة عند سلطانه، يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية. ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الأمير البهلوان المذكور اكترى لي شقة بحارة بغداد، ودفع إجارتها من ماله، وأنزلني في جواره. وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مر في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم، لا يحصى عديدهم، تموج بهم الأرض موجاً، ويسيرون سير السحاب المتراكم. فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس. وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض. وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه. وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي. كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه. وفي هذا الركب الأسواق الحافلة، والمرافق العظيمة، وأنواع الأطعمة والفواكه. وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات، فترى الأرض تتلألأ نوراً في الليل وقد عاد نهاراً ساطعاً.

ثم رحلنا من بطن مر إلى عسفان، ثم إلى خليص. ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادي السمك، ثم رحلنا خمساً ونزلنا في بدر. وهذه المراحل ثنتان في اليوم، إحداهما بعد الصبح، والأخرى بالعشي. ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوماً مستريحين، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة

ثلاثة. ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة، مدينة رسول الله ﷺ، وحصلت لنا زيارة رسول الله ﷺ ثانياً. وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث. ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس. فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها في الأرض فينبطون ماء عذباً معيناً.

ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد، وهو بسيط من الأرض على مد البصر، فتنسمنا الطيب الأرج. ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة.

ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة، فيه أثار مصانع كالصهاريج العظيمة.

ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة، وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها. وهذا الموضع هو وسط أرض نجد، فسيح طيب النسيم، صحيح الهواء، نقي التربة، معتدل في كل فصل.

ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر. وفيه مصانع [صهاريج] للماء، وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار. ثم رحلنا ونزلنا سميرة، وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون. وماؤها كثير في آبار، إلاً أنه زعاق. ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن، فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام، ولا يبيعون بسوى ذلك.

العودة إلى مكة المكرمة

وأصابني عند خروجنا من الكوفة إسهال، فكانوا ينزلوني في أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم والأمير يتفقد حالي ويوصي بي. ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفاً وتعظيماً. وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم. وكنت ضعيفاً بحيث أؤدي المكتوبة قاعداً، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس الأمير الحويح المذكور. ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين. فلما نزلنا منى أخذت في الراحة، والاستقلال من مرضي.

ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة. وكان بها الأمير علاء الدين ابن هلال مشيد الدواوين، مقيماً لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبة. وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم، منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الأصيل وابن الخليلي وناصر الدين الأسيوطي. وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية، وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار. وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفواني وهي أوّل حجة حجها، والإخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر، وجماعة غيرهم. وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك. وهو من الفضلاء. ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله، منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي العباس بن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي، والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله، والفقيه أبو عبد الله الحضري، والفقيه أبو عبد الله المرسي، وأبو العباس بن الفقيه أبي علي البلنسي، وأبو محمد بن القابلة، وأبو الحسن البياري، وأبو العباس بن

تافوت، وأبو الصبر أيوب الفخار، وأحمد بن حكامة؛ ومن أهل القصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن القاضي أبي العباس بن خلوف؛ ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم، وأبو إسحاق إبراهيم ابن يحيى، وولده. ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تقز دمور من الخاصكية، والأمير موسى بن قرمان، والقاضي فخر الدين ناظر الجيش وكاتب المماليك، والتاج أبو إسحاق، والست حدق مربية الملك الناصر. وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف، وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين. وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين.

ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين. وفي هذه السنة وصل أحمد بن الأمير رميثة ومبارك بن الأمير عطيفة من العراق، صحبة الأمير محمد بالحويح والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق. وفي تلك السنة ذكرا اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر، ودعوا له بأعلى قبة زمزم، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين. ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك، وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك، فأمر رميثة برده فرده، فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك. ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء.

ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين، وفي موسمهما وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصري. وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سرقوا فتشكوا إلى أيدمور بذلك، فقال أيدمور لمبارك بن الأمير عطيفة: «ائت بهؤلاء السراق!». فقال: «لا أعرفهم! فكيف تأتي بهم؟ وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا، ولا حكم لك عليهم! إن سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبني به!». فشتمه أيدمور وقال له: «يا قواد تقول لي هكذا!»، وضربه على صدره، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه، وغضب له عبيده. وركب أيدمور يريد عسكره، فلحقه مبارك وعبيدة فقتلوه وقتلوا ولده. ووقعت الفتنة بالحرم، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر، ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال. وركب من ركب من الأتراك وأميرهم خاص ترك، فخرج إليهم

القاضي والأئمة والمجاورين وفوق رؤوسهم المصاحف وحاولوا الصلح. ودخل الحجاج مكة، فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر. وبلغ الخبر إلى الملك الناصر: فشق عليه وبعث العساكر إلى مكة. ففر الأمير عطيفة وابنه المبارك، خرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة. فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب به الأمان ولولده فأمنوه، وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير، فخلع عليه وسلمت إليه مكة، وعاد المعسكر إلى مصر. وكان الملك الناصر رحمه الله حليماً فاضلاً.

فخرجت تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن، فوصلت إلى حَدَّه، وهي نصف الطريق بين مكة وجُدة.

ثم وصلت إلى جدة، وهي بلدة قديمة على ساحل البحر، يقال إنها من عمارة الفرس. وبخارجها مصانع قديمة، وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة. وكانت هذه السنة قليل المطر، وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت. ومن غريب ما اتفق لي بجدة أنه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام، فسلم علي وسماني باسمي وأخذ بيدي، ولم أكن عرفته قط ولا عرفني، فعجبت من شأنه. ثم أمسك أصبعي بيده وقال: «أين الفتحة؟»، وهي الخاتم. وكنت حين خروجي من مكة لقيني بعض الفقراء وسألني، ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي. فلما سألني عنه هذا الأعمى قلت له: «أعطيته لفقير». فقال: «ارجع في طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار». فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك، والله أعلم بحاله. وبجدة جامع يعرف بجامع الإبنوس، معروف البركة يستجاب به الدعاء. وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق، وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب. وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة، أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها، فإن أكملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهراً أربعاً، ولا يعتبر من ليس من أهلها وإن كانوا عدداً كثيراً.

من البحرين إلى مكة المكرمة فإلى جدة

ثم سافرنا من سيراف إلى مدينة البحرين، وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه الأيدي فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والأترج والليمون، ويزرع بها القطن. وهي شديدة الحر، كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها. وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع(١)، فلا يوصل من عمان إليها إلاً في البحر. وبالقرب منها جبلان عظيمان، يسمى أحدهما بكسير وهو في غريبها، ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها، وبهما ضرب المثل، فقيل: «كسير وعوير وكل غير خير».

ثم سافرنا إلى مدينة القُطَيف، كأنه تصغير قطف. وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات نخل كثير. تسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة، يظهرون الرفض جهاراً لا يخافون أحداً، ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين: «أشهد أن علياً ولي الله»، ويزيد بعد الحياتين: «حي على خير العمل»، ويزيد بعد التكبير الأخير: «محمد وعلي خير البشر، من خالفهما فقد كفر».

ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر، وتسمى الآن بالحَسا، وهي التي يضرب بها المثل فيقال: «كجالب التمر إلى هجر». وبها من النخل ما ليس ببلد سواها، ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب، وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى.

ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة، وتسمى أيضاً بحَجْر. مدينة حسنة

---

(١) يعني جزيرة البحرين. أما اتصالها بعمان فهذا غلط ناتج عن تسمية الساحل العربي بهذا الاسم قبل أن ينتقل الاسم إلى الجزيرة التي كانت تسمى أوال.

خصبة، ذات أنهار وأشجار، يسكنها طوائف من العرب، وأكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديماً، وأميرهم طفيل بن غانم.

ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج، وذلك في سنة ثنتين وثلاثين، فوصلت إلى مكة شرفها الله تعالى. وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه، وهي آخر حجة حجها، وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين. وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنه ولده، وقتل أيضاً كبير أمرائه لبكتمور الساقي. ذكر أن الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية، فلما أراد الدنو منها قالت: «إني حامل من الملك الناصر». فاعتزلها، وولدت ولداً سماه بأمير أحمد، ونشأ في حجره، فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر. فلما كان في هذه الحجة، تعاهد على الفتك بالملك الناصر وأن يتولى أمير أحمد الملك، وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال. فنمى الخبر إلى الملك الناصر، فبعث إلى أمير أحمد في يوم شديد الحر، فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب، فشرب الملك الناصر قدحاً، وناول أمير أحمد قدحاً ثانياً فيه السم فشربه. وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشغل الوقت، فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد. فاكترث بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره إلى الملك الناصر، فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه، وأخذ قدحاً فيه سم فناوله إياه وقال: «بحياتي عليك إلا شربت فبردت نار قلبك». فشربه ومات من حينه. ووجد عنده خلع السلطنة والأموال، فتحقق ما نسب إليه من الفتك بالملك الناصر.

ولما انقضى الحج توجهت إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند، فلم يقض لي ذلك ولا تأتي لي رفيق. وأقمت بجدة نحو أربعين يوماً. وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي يروم السفر إلى القصير من عمالة قوص، فصعدت إليه لأنظر حاله فلم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه. وكان ذلك لطفاً من الله تعالى، فإنه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد. فخرج صاحبه وبعض التجار في العُشاري بعد جهد عظيم، وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس، وكان فيه نحو

سبعين من الحجاج. ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب، فردتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دوائر.

وسافرنا منه في البر مع البجاة، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل، وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد. ولما نفد من زادنا، اشترينا من قوم البجاة وجدناهم بالفلاة أغناماً وتزودنا لحومها. ورأيت بهذه الفلاة صبياً من العرب، كلمني باللسان العربي وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً إنما يقتات بلبن الإبل. ونفذ منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ولم يبق لنا زاد، وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لأصحابي، ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثاً.

وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دوائر وصلنا إلى عيذاب، وكان قد تقدم إليها بعض الرفقة. فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء، وأقمنا بها أياماً. واكترينا الجمال، وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم، وردنا ماء يعرف بالخبيب، وحللنا بحميثرا قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي، وحصلت لنا زيارته ثانية، وبتنا في جواره.

من القاهرة إلى مكة المكرمة فتونس

ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصعيد، وقد تقدم ذكرها، إلى عيذاب. وركبت منها البحر، فوصلت إلى جدة.

ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها، فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين. ونزلت في جوار إمام المالكية الصالح الولي الفاضل أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل. فصمت شهر رمضان بمكة، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي. ولقيت ممن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفي، وشهاب الدين الطبري، وأبا محمد اليافعي، ونجم الدين الأصفواني، والحرازي. وحججت في تلك السنة.

ثم سافرت مع الركب الشامي إلى طيبة، مدينة رسول الله ﷺ، وزرت قبره المكرم المطيب زاده الله طيباً وتشريفاً. وصليت في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيماً، وزرت من بالبقيع من أصحاب الرسول ﷺ ورضي عنهم. ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فرحون.

ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلا وتبوك، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى مدينة الخليل ﷺ، ثم إلى غزة، ثم إلى منازل الرمل، وقد تقدم ذكر ذلك كله.

ثم إلى القاهرة، وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى، قد ضم الله به نشر الدولة المرينية، وشفى ببركته بعد إشفائها البلاد المغربية، وأفاض الإحسان على الخاص والعام، وغمر جميع الناس بسابغ الأنعام، فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه، وأملت لثم ركابه. فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية، مع ما شاقني من تذكار الأوطان، والحنين للأهل والخلان، والمحبة إلى

بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان،

بـلاد بـهـا نـيـطـت عـلـيّ تـمـائـمـي   وأوّل أرض مـس جـلـدي تـرابـهـا

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة، وذلك في صفر سنة خمسين. وسرت حتى نزلت بجربة. وسافر المركب المذكور إلى تونس، فاستولى العدو عليه. ثم سافرت في مركب صغير إلى قابس. فنزلت في ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس بني مكي، أميري جربة وقابس، وحضرت عندهما مولد رسول الله ﷺ. ثم ركبت في مركب إلى صفاقس. ثم توجهت في البحر إلى بُليانة. ومنها سرت في البر مع العرب، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس والعرب محاصرون لها. وكانت تونس في أيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين علم الأعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الاساد وجواد الأجواد القانت الأواب الخاشع العادل أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الإسلام... ناصر الدين المجاهد... أبي يوسف بن بعَد الحق، رضي الله عنهم أجميعن...

«انتهت رحلات الحج»

فهرس المحتويات

مكة المكرمة من خلال رحلة ابن بطوطة

نص رحلة ابن بطوطة إلى مكة المكرمة

مؤلفات وبحوث د. حسان حلاق

(تطلب من دار النهضة العربية ـ بيروت)

١ ـ موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٠٩.

٢ ـ دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩.

٣ ـ موقف لبنان من القضية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٥٢.

٤ ـ دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣ ـ ١٩٥٢.

٥ ـ التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣ ـ ١٩٥٢.

٦ ـ لبنان من الفينيقية إلى العروبة (دراسات لبنانية وعربية ١).

٧ ـ أية ثقافية أية سياسة للتعايش في لبنان (دراسات لبنانية وعربية ٢).

٨ ـ الجذور التاريخية للميثاق الوطني اللبناني والاتجاهات الوحدوية والانفصالية في لبنان (دراسات لبنانية وعربية ٣).

٩ ـ الأبعاد الطائفية والسياسية في مواقع الحكم والسلطة في لبنان (دراسات لبنانية وعربية ٤).

١٠ ـ اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية (دراسات لبنانية وعربية ٥).

١١ ـ دور اللبنانيين في معركة النضال العربي (دراسات لبنانية وعربية ٦).

١٢ ـ مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ١٩٣٦.

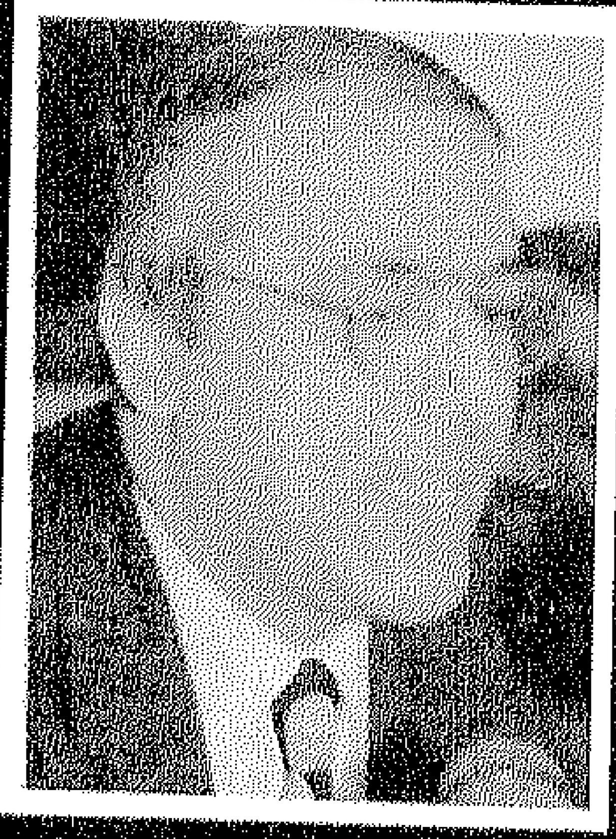
١٣ ـ أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت.

١٤ ـ التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية ـ سجلات المحكمة الشرعية.

١٥ ـ بيروت المحروسة في العهد العثماني.

١٦ ـ مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات.

١٧ ـ العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ـ الأندلس ـ صقلية ـ الشام.
١٨ ـ المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم ١٨٧٨ ـ ١٩٧٨.
١٩ ـ مذكرات سليم علي سلام ١٨٦٨ ـ ١٩٣٨.
٢٠ ـ العلامة الدكتور عمر فروح ١٩٠٦ ـ ١٩٨٧.
٢١ ـ تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي.
٢٢ ـ الإدارة المحلية ـ المحتسب.
٢٣ ـ دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية.
٢٤ ـ تاريخ العلوم عند العرب.
٢٥ ـ تاريخ العلوم والتكنولوجيا.
٢٦ ـ ملامح من تاريخ الحضارات.
٢٧ ـ دراسات في تاريخ المجتمع العربي بالاشتراك مع د. عبدالعزيز قانصو، د. عدنان السيد حسين، د. مصطفى فواز.
٢٨ ـ مقدمة في تاريخ العرب بالاشتراك مع د. عبدالعزيز قانصو، د. مصطفى فواز.
٢٩ ـ مدن وشعوب إسلامية.
٣٠ ـ «ألبوم» (Album) صور ولوحات نادرة: بيروت ـ دمشق ـ القدس ـ القاهرة في العهد العثماني.
٣١ ـ المناهج العلمية في كتابة الرسائل الجامعية (كيف تكتب بحثاً أو رسالة أو أطروحة) بالاشتراك مع د. محمد منير سعدالدين.
٣٢ ـ عمر حوري (١٩١٢ ـ ١٩٩٤) سيرة رجل ومسيرة أمة.
٣٣ ـ مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة.



المؤرخ الدكتور حسان حلاق في سطور

- مواليد بيروت عام ١٩٤٦.
- أستاذ التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.
- أستاذ التاريخ المنتدب في جامعة بيروت العربية. عضو لجنة الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية.
- عضو مجلس أمناء وقف البر والإحسان في بيروت (القيّم على جامعة بيروت العربية).
- عضو المجلس الأعلى لجامعة بيروت العربية.
- نائب رئيس مجلس أمناء المركز الإسلامي للتربية في بيروت، ونائب رئيس تجمع بيروت.
- عضو المجلس العلمي لكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية.
- رئيس اللجنة الثقافية وعضو الهيئة الإدارية في نادي متخرجي جامعة بيروت العربية.
- عضو اللجنة الثقافية في المركز الإسلامي - عائشة بكار، عضو جمعية متخرجي الجامعات المصرية.
- شارك في ندوات ومؤتمرات علمية محلية وعربية ودولية، ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغات: الألمانية والإنجليزية والتركية.
- اعتمد الكثير من المستشرقين على مؤلفاته ودراساته، واعتمد المؤتمر العلمي الذي عقد في برلين عام ١٩٨٨ والندوات العلمية الألمانية على مؤلفاته لفهم تاريخ لبنان السياسي والاقتصادي والاجتماعي. كما اعتمد المؤتمر العلمي الذي عقد في لندن عام ١٩٩١ على تلك المؤلفات والبحوث.
- له العديد من المؤلفات التاريخية والسياسية والحضارية في ميادين الدولة العثمانية، لبنان، بيروت، فلسطين، شخصيات لبنانية، اشتهر عنه، أنه قام عبر سنوات بتصحيح جوانب هامة من التاريخ العثماني وتاريخ بيروت ولبنان وفلسطين.
- أول من استخرج وحقق ونشر سجلات المحكمة الشرعية في بيروت، وأصدر عدة كتب وعدة دراسات معتمدة على هذه السجلات، وتضم مجموعته الوثائقية حوالي مائة ألف وثيقة غير منشورة.
- أول من قدم برنامجاً تلفزيونياً عن بيروت وتاريخها وتراثها تحت عنوان «أوراق بيروتية».
- نال شهادة تقدير عام ١٩٩٢ من جامعة الإسكندرية على جهوده العلمية.
- نال شهادة المؤرخ العربي وشهادة تقدير من اتحاد المؤرخين العرب عام ١٩٩٣.
- مرشح دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية لجائزة الملك فيصل في سبيل الإسلام والمسلمين لعام ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.